هي وغيرها

(وقصص أخرى)

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL. 637 2743/4, TELEX: SHOROK 267780

أنيس منصور

هي وغيرها

(وقصص أخرى)

دار الشروق

قصة حبيبى

كأنني فتحت عيني فى قرص الشمس ، وكأن قنبلة انفجرت فى أذنى . . فأنا لاأرى بوضوح ، ولاأسمع إلا ضوضاء . . ماذا حدث لى ؟ لاأعرف . . أنه شاب كأى شاب فى الدنيا . . ولكن قلبي تعلق به . . لاأعرف لماذا ولا متى ولا كيف . . وأحسست فجأة أنه شيء مهم جدا بالنسبة لى . . وإننى لابد أن أراه كل يوم ، أو أسمع صوته على الأقل . . أما التفكير فيه فهذا يحدث ليلا ونهارا . . وكلما أحسست بالضيق فى البيت شعرت به هو أكثر.. شعرت أنه هو الذى سينقذنى أنه هو الذى سيرحمنى من عذابى مع أمى وأبى وأخوتى . . ولكن كيف يخلصنى هو . . طبعا لم أفكر أبدا فى ذلك .. بل أن مجرد التفكير فيه يرحمنى . ولكنى لاأعرف اسما لشعورى هذا . . حب ؟ مجرد ميل . . استلطاف . . احترام.. إعجاب . . لكنى فى نفس الوقت أكره شعورى نحوه . أكره شعورى بأننى أحببته كده مرة واحدة .. أننى أشعر كأنه اغتصبنى.. كأنه دخل قلبي بالقوة . . كأنه لم يستأذن فى الدخول . . وإنما ضرب الباب برجله . .

وأحيانا أقول لنفسى أننى لاأعرف لى رأسا من رجلين . .

كل يوم أقابله .. كل يوم أراه .. كل يوم أكلمه . وأنا ما أزال فى هذه الدهشة . . أننى لاأستطيع الابتعاد عنه . . هذا هو شعورى بالضبط . . أريد أن أكون بجواره فقط . . ولكن لماذا ؟ فى الحقيقة لا أسأل نفسى أكثر من هذا . .

أريد أن اسأل الناس كلها عنه . . واسألهم عنى أنا . . هذا المولود الذى أحمله فى قلبي أريد أن أجد له اسما . . أريد أن أفرج الناس جميعاً عليه . . أقول لهم : هذا هو ابني . . وهذا هو أبوه . . أريد أن أسمع رأيهم فى هذا الحب !

ولاأعرف كيف يمكن أن يحدث هذا . .

وفى يوم ذهبنا إلى حفلة . . هو ذهب قبلى وأنا ذهبت مع إحدى صديقاتى بعد وقت طويل حتى لايرانا أحد . . حتى لايعرف أحد أن بيننا شيئا . .

إننى كالتى وجدت أسورة من الذهب فى الطريق . . ولفتها فى منديلها ، وألقت بالمنديل فى حقيبتها . . وبعد ذلك ذهبت إلى « تجار الصاغة » لتسألهم عن ثمن هذه الأسورة . . كل واحد يقول كلمته . . هذا يرفع الثمن وهذا يخفضه . . وكلهم يضاعفون من حيرتى وارتباكى . . سألت الفتاة التى إلى جوارى وأنا لاأعرفها : مين والنبي الواد الحليوه اللى هناك ؟

ونظرت لى ببعض عينها وقالت : هو فين ده ياحبيبتى ؟ فأقول لها : الواقف هناك جنب الشباك . . وتقول هى : ده . . ؟ حليوه؟. حكمتك يارب . . فين بقى حلاوته . . عينيه الضيقة . . شعره الأكرت . . . التفتفه وهوه بيتكلم . . ياحسرة . . اللى مافى حد يسر الخاطر . .

كل كلمة من كلماتها كالسكين يقطع خيوط قلبى . .

وأنظر إليه من جديد . .

وأحاول أن أرى هذه الأشياء التى قالت لى عنها . . فلا أجد منها شيئا . .

ثم لنفرض أن هذا هو شكله ، ثم أنه يعجبنى مادخلها هى . . مادخلها أم لسان طويل . . وأنظر إليها هى مرة أخرى وأقول فى نفسى : ويعنى أنت اللى عدله . . واللى يشوفك وأنت واقفه يقول عليك قاعدة . . وصدرك ماله كده . . زى ماتكونى مخبيه عيل صغير تحت فستانك الجربان . . شوفى نفسك أنت . . !

وابتعد عنهاو أذهب لاناس آخرين .

. . أننى كالتى قامت باستفتاء وتريد أن تعرف رأى الناخبين..
أننى لاأريد أن أوثر على الناخبين أريد أن أسمع رأيهم فيه بحرية وفى كل مرة اقترب من بعض المدعوين والمدعوات اندهش جداً لأنهم لايتكلمون عنه . . اندهش عندما لاأجد اسمه يتردد على ألسنتهم . . أننى أتصور أنهم يجب أن يفكروا فيه . . أن

يتكلموا عنه . . أن يتركوا الطعام والشراب وينظروا إليه فقط . . ولكنى كنت مشغولة به . . ومن حين لحين أنظر إليه فأجد بعض الفتيات يسلمن عليه . . وأشعر بالضيق من هذا السلام باليد . . لماذا لاتبتسم كل واحدة من بعيد لبعيد .. يعنى لازم اللمس باليد .. لازم يعنى . . وأتمنى أن يكون لى فى ظهرى عيون تراه . . تماما كالعنكبوت . . يابخت العنكبوت أنه يستطيع أن يرى فى كل الاتجاهات . . وكلمة عنكبوت هذه لم تعجبنى . . فالعنكبوت تخرج منه خيوط يمكن تقطيعها.. يمكن أن ينفخها الانسان فتطير.. وأفكارى تشبه هذه الخيوط . . ونظراتى تشبه هذه الخيوط . . أننى عاجزة أمامه وعاجزة معه ولاأعرف كيف أفر من عيون الناس ولامن أيدى الفتيات . . أننى أفضل أن أكون كدودة الحرير . . التى تفرز من فمها خيوطا جميلة . . ومن هذه الخيوط الجميلة أنسج فساتين جميلة ارتديها عندما أقفل باب غرفتى . . وأحلم بأننى أنيقة . . أنيقة له ، جميلة له ، عروس له . .

وأسمع ضحكاته تملأ المكان فألتفت وأنا ضاحكة مثله دون أن أعرف السبب . . فأجده واقفا مع أصدقائه . . أنهم يتكلمون فى أشياء لاأعرفها . . ولكن لاشك أنه سيد الموقف ، أنه أحسن من يتحدث ، أجمل من يضحك ، أروع من يسكت . . طبعا هو أحسن من بابا وماما وأخى . . طبعا لاشك . . وأسمع فى رأسى

صوت ماما وهى تقول لى : ماله أخوك يابت . . ماله أبوك يابت . . !

. . وأخيراً قررت أن أبتعد عن هذا الجو . . لقد تعبت أعصابى . . أنى أخشى أن يسمعنى الناس وأنا أكلم نفسى . . أخشى أن أناديه بأعلى صوتى . . أنى أريد أن أناديه وأقول : حبيبى أهوه . . عريسى أهوه . . إيه يعنى . . سيعرف الناس أنى أحبه . . وإيه يعنى . . أنا أريد أن يعرف الناس ذلك . . سيقولون أنى مجنونة . . ولكن سيقولون أنه شاب تموت فيه البنات . . وهذا يرضينى هذا يملأ قلبى بالاعجاب له . . طبعا أموت فيه . . والناس مالها . . مال الناس بى . .

وقررت أن أذهب إليه وأقول له : يالله نخرج . .

ثم أعود وأقول لنفسى : وهوه أنا دخلت معاه علشان أخرج معاه ؟ . .

وفجأة أنظر إليه . . وكأننى فتاة أخرى . . فأجد العرق على وجهه . . عرق ؟ ! مع أن النوافذ كلها مفتوحة . . عرق ؟ !

لابد أنه مكسوف . . مكسوف من إيه . . إذا كانت الرجال بتنكسف . . أمال احنا نعمل إيه . . مكسوف . . وعامل جرىء . . عامل طويل اللسان . . عامل راجل . . هل هذه الجرأة ليست إلا محاولة لتغطية الخجل الحقيقى ؟ ! .

وقد رأيت أنه أتخن مما تصورت وأنه أقصر مما كنت أراه قبل ذلك . . ثم البنت التى ظل إلى جوارها وكأنه يرفرف عليها بأجنحته . . كأنه خائف عليها خائف عليها من إيه . . دا شكلها يقرف . . هل هذا هو النوع اللى يعجبه من البنات . . فيها إيه . . مش شايفه . .

وأخرجت المنديل من جيبى وتمنيت أن يكون هو فيه . . ثم بصقت . وقلت بصوت هامس وأنا أترك المكان : أنت فاكر نفسك إيه . . دا حتى مناخيرك كبيرة ! وأنت عامل زى بابا !

من غير نهاية

آه . . لو كانت أفكارى وعواطفى ملفوفة كلها على هيئة بكرة خيط . . لها أول ولها آخر . ولها اللون الذى يعجبنى . . آه لو كنت أستطيع أن أرتب هذه الخيوط بالشكل الذى يعجبنى .

آه . . لو كنت أعرف مايدور فى عقلى . . وفى قلبى وفى معدتى . . أننى كثيراً اتلخبط فى مشاعرى . . فأحس بالصداع فى معدتى ، وأحس بالمغص فى عقلى ، وبالقرف فى قلبى . . أننى لا أعرف أين يوجد الحب ، ولا أين توجد الكراهية . . ولا أين الجوع والعطش . .

أننى أعرف أن الطريق إلى العقل يمر بالمعدة وبالقلب . . ولكن أنا لاأعرف أول هذا الطريق ولانهايته. فنحن نأكل ولكن عملية الأكل هذه عملية عقلية . . والشعور باللذة مسألة عقلية . . والشعور بالارتياح للذين نجلس إليهم عند الأكل مسألة عاطفية — مسألة قلبية . .

فبأى شىء نأكل . . بالقلب ؟ . . بالعقل ؟ بالمعدة ؟ لاأعرف !

* * *

وأمس جلست ارتب أفكارى . . حاولت أن أجعل قلمى هو البكرة . . وحاولت أن أجعل أفكارى وعواطفى هى الخيط المزدوج . .

ولم أفلح فى ترتيبها . .

وإنما امسكت هذه الخيوط على هيئة عقد . . وحاولت أن أحل عقدى واحدة واحدة . .

وكل إنسان فى الدنيا له عشرات العقد . .

وهذه العقد هى نتيجة صراعنا الدائم بين مانريد ومانستطيع . .

بين الذى نريد أن نحققه . . أن نكسبه أن نفوز به . يعنى بين أحلامنا وآمالنا وبين الذى نستطيع أن نأخذه من أنياب الناس وأظافر المجتمع . .

فنحن نريد ، والمجتمع يقاوم أحلامنا . .

فكل إنسان فى جيبه ملاليم ، ويريد أن يشترى العمارات الكبيرة.

وشعورنا بالعجزعن تحقيقالذى نريده ، هوالذى يعقدنا . . هوالذى يجعلنا نشعر بأننا عاجزون . . فاشلون . . فنكره القادرين . . ونحقد على الناجحين . . وعلى السعداء . . وعلى غيرنا من الناس..

وهذه « العقدة » هى التى تغرى الخيوط بأن تلتف حولى

وتتعقد . . . . وتتعقد ويصبح كل انسان شخصا معقدا . . يعذب كل انسان معه وحوله ، ويتعذب هو الآخر . .

بدأت أعد العقد التى عندى . . فوجدتها كثيرة لانهاية لها .. كالعقد الموجودة فى أى بلوفر . . فى أى بدلة . . فى أى فستان . ولولا التفاف الخيوط بعضها حول بعض لاستحال وجود أى ثوب . . فالعقد هى أساس أى نسيج ، أى شىء نرتديه . . أى شخصية ندخل فيها . . .

وبدأ الكلام يدور بينى وبين نفسى . . أو بينى وبين العقد الكثيرة التى هى نفسى . . وعندما اتكلم مع نفسى فاننى أكون أقل أدبا . . يعنى أرفع الكلفة جدا بينى وبين نفسى . .

فقلت : قل لى بقى ياحضرة . . ماهو تفسيرك لرجل كبير زى حضرتك ومعه لعبة صغيرة . . عروسة . . حصان . . شخشيخه وفى جيوبه حمص ولب ؟ ماتفسيرك ياحضرة الأستاذ ؟ .

ورددت على نفسى : ماهو قصدك ؟

قلت : طبعا أنت عارف قصدى . . عاوز تفسير لهذه الحادثة الطريفة المضحكة ؟

وكان ردى : تسميها مضحكة . .

قلت : آسف أنا أقصد أنها تسيل الدموع . . دموع الضحك .. دموع الأسف . . لأنها دموع تسيل لمجرد ذكر هذه الحادثة .. حادثة واحد فى يده شخشيخة . . واحد كبير فى السن .

وكان ردى : اسمع . . هناك نظرية فى علم النفس تقول : أن الانفعالات الشديدة تجعل الانسان يتحول إلى طفل صغير . . فالرجل عندما يخاف فانه يصرخ كالطفل ، ويهرب كالطفل . . والرجل عندما يفرح يتحول إلى طفل . . ويبكى من شدة الفرح ويرقص كأنه عيل . . وهذا الذى حدث أخيرا وأنت تصفه بأنه يبعث على الضحك هو نوع من الرجوع إلى الطفولة . . . فالحب الشديد والكراهية الشديدة .. وكل ماهو شديد وكل ماهو عنيف .. يضربنا كالكره فترتمى فى أحضان شبكة الجول . . شبكة الطفولة . . تعيدنا إلى « اللفة » . . إلى صدر الأم . . . . فالرجل عندما يحب فى سن كبيرة . . فهو مسكين ياسيدى .. أنه يصبح طفلا وكل شىء فى دنياه يصبح صغيرا . الناس . يصبح عددهم قليلا جدا لايزيدون على أمه ومرضعته . . والبيت يصبح غرفة واحدة . . وقلمه ، إن كان كاتبا ، يصبح بزازة لاتفارق فمه . . بزازة لاتكتب . . بزازة لاتنطق لاتقول شيئا . . لأنه هو لايقول شيئاً . . .

قلت : إلى هذه الدرجة . . هل من الممكن أن تؤدى أشياء

صغيرة تافهة إلى هذه الانفعالات الكبيرة ، إلى تحويل رجل إلى طفل ، وتحويل غنى إلى شحاذ وتحويل جبل إلى صحراء مليئة بالرمال ، وتحويل قلم ملئ بالحبر والديناميت إلى بزازة أو زجاجة شفافة . . كل مافيها سائل له لون واحد .

وكان ردى : طبعا أنت تعرف الذى سأقوله . . هو إنه لا يهز الدنيا غير الأشياء الصغيره . . أشهر قنبلة فى الدنيا هى القنبلة الذرية . . الذرية نسبة إلى الذرة . . أى إلى الجسم الصغير جدا الذى لاتراه العين ، فاذا انفجر . . أنت تعرف النتيجة . . وقطرات الماء عندما تنزل من السماء تراها فى النيل عند الفيضان.. أنها الذرات التى سحقتها مياه الأمطار . . والمطر هو دموع السماء ، والعكارة هى دموع الجبال أيضا . .

والانفعالات الشديدة هى النار التى تحول الماء إلى بخار . . وهى النار التى تذيب الحديد . . أعصابك الحديدية . . وهى النار التى تحيل عينيك الجامدتين إلى مصابيح حمراء . . هى النار التى تأكلك فتصبح أفكارك دخانا ، وكلامك شرارا ، وتجعل كل شئ يؤلمك ويوجعك . . .

قلت : أيوه فكرتنى . . أننى ألاحظ أن كل شئ يوجعك . . كل شئ يؤلمك . . كأن أعصابك خارج جلدك . . كأنه شعر جسمك هو أعصابك . . أو كأن كل شعرة فى جسمك هى

« إريال » يتلقى كل شيء من الخارج ويوصله إليك بسرعة . . أو كأن هذه الشعرات تتحول إلى ابر تلسعك .. أو كأنك فقير هندى وبدلا من أن ينام على سرير من المسامير . فإنه قد وضع المسامير فى جلده ليصبح كل مكان سريرا له ... فالمسامير فى جسمه . . السرير فى أى مكان . . أو كأنك جمعت كل الابر الموجودة فى الناس وغرستها فى نفسك . . كأنك المسيح الذى تحمل كل الآلام نيابة عن البشر . . قل لى بقى . . إيه حكاية الألم الشديد الذى تعانية . . ثم ماهى حكاية الاحتقار الواضح الذى تخفى فيه آلامك . . كأن آلامك قطعة من القماش الأحمر . . وضعتها فى كيس من النايلون الأسود . . ماهذا ياحلال العقد ؟

وكان ردى : نعود إلى حكاية الرجل العجوز الذى أحب . . لايمكن أن يكون هناك رجل عجوز يحب دون أن يكون فى هذا الحب بعض الاحتقار . . لنفسه أو لغيره . . فهو أولا يحتقر نفسه لأن الحب جعله يهبط إلى هذه الدرجة . . لأن الحب جعله يضع الحمص والسودانى فى جيبه . . ويجعل تصرفاته أيضا كتصرفات العيال . . وهذا هو الذى يجعل العجوز يحتقر نفسه . . وهو فى نفس الوقت يحتقر الفتاة الصغيرة التى يحبها . . يحتقرها لأنها مصدر عذابه . يحتقرها لأنها جعلته يتحول إلى طفل غير محترم . . أمام الناس وأمام نفسه . . وهذا هو الأهم . . ولأنها لا تقدر حبه لها . . لا تقدر التضحية الشديدة التى قام بها

. . لاتقدر الثمن الذى دفعه من كرامته . . فالحب هنا كالنار التى تجعل ماء الوجه يتبخر . . تجعل الكرامة تتحول إلى دخان فى الهواء . . تسمح لى أضرب لك أحد الأمثال . . المثل مش ولابد ولكنه صحيح . .

ماهو أحب شىء إلى الذباب ؟ . . العسل طبعا . . والذبابة تقع فى العسل . . وتحاول الخروج من العسل . . أنها تحب العسل ، ولكنها لاتحب أن يمسك العسل بأرجلها ويجعلها عاجزة عن الحركة. ولاتزال تقاوم وتقاوم حتى تموت . . تموت أحلى ميتة . .

ولكن العسل الذى تحبه قاس عليها . . كأنه وحش قاتل . . لايزال يقتلع أرجلها وأجنحتها حتى يجردها من كل عناصر الحياة . مع أن العسل هو حياتها ، هو جنتها ، هو فردوسها الذى تحلم به . . ويتحول الفردوس إلى كفن . . إلى نعش . . إلى قبر . . إلى عزرائيل . .

وهذه الذبابة تحب العسل وتحتقره وتكرهه . . وتحبه . . فهذا العجوز الذى يحب . . أنه يجعل كل عواطفه ملفوفة فى هذا النايلون الأسود . . حب مع الاحتقار لشخص المحب ، وللشخص المحبوب. هل فهمت ؟ . . إيه تانى عاوز تعرفه منى وعنى ؟

قلت : والحل ؟

وكان ردى : حل إيه ؟

قلت : هذه العقد ؟

ورددت : كل هذه العقد لايمكن أن يكون لها حل . . وأنا لاأفكر فى حلها وإنما أتركها تحل نفسها بنفسها . . وأنا أفضل أن أعيش فى فرن من الانفعالات الشديدة . التى تجعل أعصابى تذوب ودموعى تسيل ، وعينى فى لون الشفق على أن أعيش وأموت جامدا . . أفضل أن أتحول إلى ذرات كالجبل ، على أن أبقى صحراء مفككة . . كلها رمال ليس لها شكل ولاحجم ولا أول ولا آخر . .

أننى لا ألوم الناس ، ولا ألوم نفسى .

قلت : ولاتلوم الاحتقار . . احتقارك لنفسك أو لغيرك . . ولامانع عندك من أن تكون كهذا العجوز يلعب بالكرة أو البلى أو البزازة . . أو تلعب به الكرة أو . . البزازة . .

وكان ردى : عندى مانع . . عندى مانع أن أصبح كيسا من النايلون الأسود ليس فى داخله أى شىء . . عندى مانع أن يكون كل شعورى هو احتقارى لنفسى أو لأى إنسان . .

قلت : اسمع أنت معقد !

ورددت : كل انسان كده !

قلت : والخلاصة ؟

وكان ردى : أنا نفسي أكتب قصة طويلة . . أروى فيها كيف حدث فجأة أن عجوزا وأنا مصر على أن يكون هذا المحب عجوزا — كيف أنه أحب فتاة . . ونقطة الصراع بينهما ليست فارق السن : . فالمرأة عندها من مخاوفها وتجارب جنسها كله مايجعلها تستطيع أن تقف مع أى رجل فى أى سن على مستوى واحد . . فالفتاة فى أى سن تستطيع أن تكون شريكة لأى رجل فى أى شيء أو أى معنى . ونقطة الصراع ستكون بينهما فى شيء صغير جدا . . تافه . . يبدو تافها . . أنها تريده أن يكون صعبا أن ينطق بصعوبة . ألا ينطق بكلمة الحب أبدا . ألا يقولها مهما كانت الظروف . . أنها تريد أن تغتصب منه هذه الكلمة . . أن ترى حروفها ترتسم على مر السنين على وجهه ، على لسانه . أنها لاتريد أن تسمع كلمة الحب ولاأن تراها ، ولا أن ترى مقدماتها . . تريد أن تحسها ولاتراها ، أن تتوهمها ، أن تتخيلها ، أن تحلم بها ولذلك فهى تنقله إلى جو جميل ، فاذا رأت الحروف الأولى للحب هربت منه وهربت به . ويتعذب هو وتتعذب هى من أجله . وتعود إليه تتمسح فيه . وتبكى لأنها لاتسعده ولاتعرف لماذا تحب الحب وتكره كلمة الحب ؛ تحب الحنان وتكره كلمة الحنان . أما هو فشكلته . . أنه يريد أن يسمع منها كلمة الحب . أن يسمع منها كلمة الحنان . يريد أن يرى الوجه الذى يحبه وقد

تبدلت عليه كل ألوان الحب . . كل حروف الحب . . فينزل شعرها على وجهها كالألف واللام . وينفتح فمها كالحاء . . ويطبع هو قبلة تكون كالنقطة تحت الباء . يريد أن يلصق على وجهها ورقة كتبت فيها كلمة الحب ملايين المرات . يريد أن يصبح كلامها كله مكونا من حرفين : حاء وباء . . كل الحروف الهجائية لاتهمه . . كل الكلمات لاتهمه . . يهمه فقط هذان الحرفان . وتصبح مشكلته أنه يريد أن يسمع الكلمة التى تكرها هى . وهو ينقلها إلى الجو الحلو لكى تقولها . . وهى تنقله إلى نفس الجو لكى يهم بالكلام ولايقول . . نار . نار . يدخلها برجليه . نار تهرب منها هى برجليها وبرجليه . نار تجعل الحديد يتلوى ، والماء يغلى ، والعجوز يتحول إلى طفل ، والطفل يلهو ويلعب كالعيال ويبكى كالرجال .

قلت : وبعدين ؟

ورددت : إلى هنا توقفت العقد .. بودى . أن أبحث عن نهاية . بعض الناس يكتفون بهذا القدر من القصة . . والباقى يغمرونه فى النوم . فى النسيان . أنهم لايريدون أن تنتهى . . أو يحاولون أن ينسوا أنها بدأت . وينسون بالنوم الطويل . . وينسون بالسهر الطويل . وبالخمر الكثير . وبالدوخة المستمرة فى العمل الشاق ، أو الدوخة التى يصبونها فى أقراص منومة أو أكواب

ملونة ، أو فى دخان ملون . . أنهم يصبحون كالجبال التى تختفى قممها فى السحاب الأسود :

قلت : وبعدين ؟

وكان ردى : وبعدين ، قل لى أنت أعملُ إيه ؟

قلت : أحسن حل هو أن تكتب . . وأعظم حبر فى الدنيا : سواد الليل والدموع . أكتب حتى إذا لم تكن هناك فائدة .

وكان ردى : سأكتب !

* * *

وأضيفت عقدة جديدة ! ! !

خرج من حياتي!

جاءني صديقي مهموما حزينا ، على غير عادته فبادرته قائلا : مالك ؟ الدنيا حلوة !

فقال : حلوة ؟ على لسانك أنت ، أما على لساني أنا فهي مرة .. طعمها زي الزفت !

قلت : ماذا حدث ؟ حب جديد ؟

قال : جديد ؟ أبدا . . هو نفس الحب القديم ، ولكن الهموم والمصائب جديدة . .

قلت : ولكن ماذا حدث ؟ ومتى ؟ إنني أراك كل يوم ، ولكنك لم تحدثني عن شيء . .

قال : أنت فاكر الكلام الذي قلته لك وأنا سكران في الأسبوع الماضي ، أنا متمسك به الآن . .

قلت : أنا لا أذكر شيئا مما قلته . . فكلامك كثير . .

قال : أنت تعرف أنني أحبها . . أحب كاترين . مارأيك فيها ؟

قلت : جميلة وطيبة . .

قال : هذه هي بلواى . . هذه هي مصيبتى . . أنا أحبها وأغار عليها . . هذا هو سر شقائى ، وقلة نومى ، وانسداد نفسى وضيق الدنيا فى وجهى . . أنها جميلة ، وليست طيبه كما تقول . . أنا أشك فى سذاجتها أنها ماكرة خبيثة . . ياأخى والله أنا حائر . . لقد سمعت عنها الكثير . . سمعت أنها أحبت واحداً واثنين وثلاثة ..

قلت : ومتى كان ذلك ؟ . .

قال : أنا أعرف ؟ . . لقد أحبت منذ زمن طويل . .

قلت : أيام كنت تعرفها ؟ . .

قال : لا . . قبل أن أعرفها . كانت تحب فتى لبنانيا وفتى مصريا ثم فتى إيطاليا . . وأنا لاأتصور كيف أنها أحبت هؤلاء جميعا . . أنا لاأتصور أن الكلام الذى قالته للأول أعادته للثانى ورددته للثالث ، كلام ممضوغ ، كلام قالته ألف مرة . . ثم جاء دورى لأسمع نفس الاسطوانة . . هذا معقول ؟ . هاتان الشفتان قد قبلهما عشرات قبلى وهاتان الوجنتان ، وهذا العنق ، وهذا القوام ، وهاتان العينان . . كل هذا ياصديقى كان متعة للآخرين قبل حضرتى . . . تصور هذا . . لقد قالت للأول أننى أحبك . . فبكى . . وقالت للثانى أننى أحبك فمال على قدميها ، وقالت

للثالث : أنني أعبدك . . فبكي وبكت . . وأما أنا فقد وفرته عليها هذه العبارة وقلتها لها ، قلت لها : أنني أحبك . . وبكيت أنا وملت على قدميها . .

قلت : كل هذا حدث قبل أن تعرفها أنت . . فماذا يعنيك من ماضيها ؟ هل سألت هي عن ماضيك أو حتى عن حاضرك ؟ . . هل تسمح لي أن أروى لها غرامياتك ومغامراتك منذ سنوات وحتى هذه الأيام . . لماذا تطالبها بأن تكون قديسة قبل أن تعرفك، مع أنك لاتزال شيطانا . . هل سألتك مع من كنت تسكر أمس ، ومع من كنت ترقص أول أمس ، ومع من سافرت إلى أوربا ، ومع من ذهبت إلى عزبتك في المنصورة .

وصاح صديقي قائلا : ماهذا الذي تقوله . . وهل هي مثلي . . ياأخي أنا رجل وهي امرأة ، أنني لاأستطيع أن أنظر إلى وجهها ولاأستطيع أن أستمع إلى كلامها . . كل شيء قديم . . كل شيء قد حدث قبل ذلك . . وقيل قبل ذلك . . هذا مستحيل . .

قلت : اسمع ياعزيزي . . أنت لن تسعد في هذا الحب أبدا .. أبدا أن أكثر الناس سعادة في حبهم أكثرهم نسيانا . . يجب أن تنسى ماضيها . . يجب أن تذكر أنها انسان مثلك حاول وفشل ، كما حاولت أنت وفشلت ، ثم وفقت في حبها لك . . كما وفقت أنت في حبك لها . . هناك نهر مقدس اسمه « نهر النسيان » يجب

أن ينزله المحبون ولو مرة واحدة فى حياتهم . . ليغتسلوا من الماضى . . أن الذى يعيش الآن ، وما يزال ماضيه لاصقا به ، ضاغطا عليه . . فانه لن يكون سعيدا . .

قال : ماذا تريد أن أصنع ؟ . . أننى أكاد أجن . .

قلت : أبدا أنصحك بشىء واحد : لاتنظر إلى الوراء . . أنظر إلى الأمام إلى مستقبل هذا الحب ، أنها جميلة وطيبة . . استمتع بجمالها واسترح إلى طيبتها . . فان الجمال والطيبة قلما يجتمعان معا . . أنت فى نعمة ياعزيزى هذه النعمة تجعل الحياة حلوة . . لو أردت . .

وخرج صديقى . . خرج من بيتى وخرج من حياتى كلها . . فقد سافر إلى ايطاليا ، ليقيم هنالك . ولم يبعث برسالة واحدة لأحد أصدقائه جميعا . . ويبدو أنه نزل فى « نهر النسيان » ليستحم . . فأغرق كل ماضيه ، ولم يبق له إلا حاضره وإلا عروسه كاترين . .

ونظر وراءه !

وقد تذكرت قصة قديمة ترجع إلى أكثر من ثلاث آلاف سنة . . قصة فتى وفتاة كانا حبيبين ، وكانا يتنقلان بين الوديان والغابات والأنهار والبحار . يغنيان أغنية الحب السعيد . . وكان الفتى ينظر إلى أوراق الورد ويتطلع إلى شفتى حبيبته وإلى مياه البحيرات الصافية ثم يتلفت إلى عينى حبيبته ، وإلى الغصون الناعمة وينظر إلى قوام حبيبته . . وفى لحظة أغمض عينيه وراح يتأمل السعادة التى تغمر قلبه ، وفى هذه اللحظة زحف ثعبان هائل ولدغ حبيبته . . فسقطت جثة هامدة . .

وانتقلت الفتاة إلى عوالم الأموات . .

وأما الفتى فراح يبث شكواه للدنيا كلها . . لقد كان صاحب ناى عجيب ، كان إذا نفخ فيه توقفت المياه فى الأنهار وأطلت الأسماك برؤوسها ، ودنت النجوم من الأرض . . ووضع القمر قناعا من السحاب الأسود ، والطيور تركت بيضها وراحت تحوم حول رأسه ، والحشرات تركت أحجارها ، والوحوش هجرت أوكارها . . كلها تسير فى موكب حزين وراءه وهو يبكى على محبوبته التى انتقلت إلى عالم الأموات ، على غير موعد ، وقبل أن ينعم بها . .

وضاق الفتى بوحدته وضاق بالطبيعة التى تبكى حوله ، تبكى عليه وعلى محبوبته . . وقرر الفتى أن يذهب إلى عالم الأموات ، وأن يحمل الناى السحرى فى يده ، وأن يستعطف آلهة الموت وأن يناشدهم الشفقة بحبيبته التى انتقلت إليهم وهى ماتزال شابة . .

وأمسك الناى فى فمه وراح ينفخ ، فانفتحت له أبواب عالم الموت وأضاءت له السراديب المظلمة ، وتزاحمت الآلهة حوله ، وراحت عيونهم تذرف دموعا من حديد ونار . . وسألوه : ماذا يريد الفتى ؟ فقال : أريد حبيبتى التى أفرح بها . . أريد التى انتقلت على ناب الأفعى إلى عالمكم . . وأنها ستعود إليكم يوما من الأيام . . . وأنا كذلك سأعود إليكم . .

ورقت له قلوب من حديد ونار . وقالت الآلهة : سنردها إليك حالا . . ولكن لنا شرط واحد . .

وقال الفتى متلهفا : أننى أقبل أى شرط . .

قالوا : أنها ستسير وراءك فى هذه السراديب الطويلة . . ولكن لاتنظر وراءك قبل أن تبرح عالم الموت . . لاتنظر وراءك أبدا . .

وفرح الفتى وسار فى السراديب الطويلة . . وهو يحدث نفسه بأن سعادته قد ردت إليه . . وأنه سيطير بها فى الهواء .. وأنه لن يمشى معها على الأرض . . فالأرض تملؤها الأفاعى والوحوش ..

وأنه سيركب معها النهر والبحر ، فالأسماك كلها صديقاته وكلها تعشق ألحانه . . لن يسير معها على الأرض فكلها أنياب وأظافر . . . . وفى فرحته وسعادته خانته رقبته ، فاذا به يتلفت وراءه وإذا به يرى حبيبته وهى ترفل فى ثوب شفاف أبيض . . ولكنه لم يكد يراها حتى تلاشت . . وحتى رأى نفسه خارج أبواب عالم الموت.. حزينا كما كان ، وإذا الناى فى يده يصبح قطعة من الحجر ، وإذا السماء ترميه بالوحل والنهر يرميه بالرمل ، والحشرات تهرب منه ، والوحوش تزأر فى وجهه ، وإذا ليله بلا قمر ، ونهاره بلا شمس ، وحياته بلا أمل ، وإذا هو انسان بلا صديق . . والدنيا كلها أعداؤه . .

عذاب نانسى

هذه امرأة عجوز قد حنى الزمن ظهرها ، وجعد وجهها ، وأثقل مشيتها وأصاب بالرعدة العالم الخارجى أمامها ، وأخلى من الأسنان فكها ، ولكن الزمن لم يقو بعد على أن يحطم قلبها ، فهو مايزال حارا ينبض بالشفقة ، عامر بالحنو على « نانسى » تلك الفتاة الصغيرة التى ماتت عنها أمها فى بلد غريب ، فلم تجد من برودة الغربة إلا دفأ قلب العجوز . . ونانسى . . هذه الصغيرة لم تتعلم عن أمها شيئا إلا ماسمعته من تلك الشفتين المرتجفتين ، شفتى العجوز .

وفى ذات يوم جلست العجوز ، وأمسكت بصورة أم نانسى التى ماتت منذ سنوات طوال وقالت : لقد كانت أمك يانانسى جميلة حقا . وكان جمالها حديث الناس . جميعا . كم من الشبان فتنوا بعينيها الساحرتين ، وكم منهم هام بشعرها الفاحم المسترسل ، وكم منهم تاه فى مشيتها الساحرة التى كأنما هى إيقاع موسيقى خالد . . آه يانانسى لو عاشت أمك لتراك . . أنت التمثال الصغير . . كل شىء فيك يذكرنى بأمك . . صوتك ذو « البحة » البديعة ، وشفتاك اللتان ضمتا على إصرار وقوة .

وسكتت العجوز وراحت تقلب بعصا حديدية النار التى توهجت فى الفرن ثم مضت وقالت: أن أخوف ماأخافه يانانسى أن أتركك وحدك ، وأنت ماتزالين فى الثانية عشرة من عمرك الذى أرجو أن يجعله الله مديدا سعيدا . . إننى الآن شارفت الثمانين ، وأن علتى لاتفتأ تعاودنى ، ولكنها فى هذه المرة قد فاقت كل مرة ولاأخالها إلا قاضية على ، وحينئذ يا ابنتى اتركك لعناية الله وحنان أبيك . .

ولم يقبل الخريف برياحه وسحابه حتى سبقت مواكبه الحزينة إلى عالم العدم تلك العجوز التى كأنما كانت على موعد مع نهايتها . .

وبقيت « نانسى » ذلك الملاك الرقيق . . وأنها لملاك حقا . . وأن أحدا من الناس لم يرى ملائكة قط . ولكن لابد أن تكون الملائكة كنانسى لها أجنحة رفافة ناعمة تكاد لشدة نورها تضئ وتطير وتكاد حركاتها ومشيتها تكون ايقاعا موسيقيا . . .

ولكن هذه الأجفان التى يكاد الدمع يتسرب منها ، لتحمل الحزن الذى ورثته « نانسى » عن أم لم ترها ، وعن جدة قطعت رحلتها الكليلة فى هذه الحياة على عقاقير طبية مختلفه الأشكال والألوان . انعزلت نانسى عن كل الناس . .

فهى فى البيت وحيده ، بعد أن ماتت أمها وجدتها . . ولاترى أباها إلا فى نهاية الأسبوع ، فهو تاجر دائم الأسفار والرحلات ..

وأما أهل مدينة « . . . . » فهى لاتعرف منهم أحدا . . ذلك أنها هبطت إلى هذه المدينة منذ شهور ، لاتجاوز أصابع اليد الواحدة .

أنها غريبة عن المدينة ، عن أهلها ، وحتى البيت قد أصبح كريها لايطاق . . . راحت تتلهى فى البيت . . وتفر من البيت إلى الشارع . . ويقتادها الشارع إلى السينما ، وتلقطها السينما إلى إلى البيت . . ومن البيت إلى الهرم ، إلى ذلك الطريق المظلم الذى يصعد عاليا ، إلى حيث ترامت المقاعد فى ظلال الليل ، تحرسها همسات شابة وآهات فتية حارة تفلت من أفواه مرتجفة . . ثم ضاقت بهذه الأماكن جميعا . . أنها تسير مرموقة من مئات العيون الراغبة . . إنها تمشى والرموش الحامية مسددة إليها . . والنار العارمة تشوبها من داخلها . . لا تزفر إلا دخانا ، ولاتنطق إلا صراخا .

وعادت إلى البيت ذات يوم وألقت بجسدها بين ذراعى مقعد وثير ، وأسلمت نفسها لشراع الخيال الذى أخذ يطوف بها ، تارة فى الماضى الحزين ، وتارة فى المستقبل الخفى الغامض الذى لاتدرى من أمره شيئا ولاتكاد تستغرق فى أحلامها المبهمة حتى

تنتشلها منها صورة علقت على الحائط.. فاذا ماانمحت هذه الصورة عن عينها ، لم تفارق ماطبعته هذه الصورة فى خيالها . .

إنها صورة أمها . .

. . لابد أن تهرب . . لابد أن تنسى هذا الماضى القاسى الذى فرض عليها فرضا . . لماذا تعيش حزينة وحدها والدنيا طافحة بالبهجة ؟ . . لماذا تهرب من كل إنسان يعطف عليها ويهتم بها ؟.. ولماذا تبقى هكذا دون شاغل يشغلها .

لابد أن تهرب من هذا الفراغ المخيف . . الذى تلمسه فى البيت ، وفى الشارع ، وفى نفسها وفى عواطفها . . أن قلبها كالطائرة يرفرف ، ويحلق ولايجد غصنا يهبط عليه . . أنها تفتش عن أحد فلا تجد . . هذه حجرات أربع خالية إلا من قطع الأثاث ، صامتة جامدة . . كأنها رمم بالية . . أن البيت كله كمقبرة جافتها الحياة . . وحل بها العدم . . أن هذه الأشياء جميعا لاوجود لها . ولكن نانسى ونانسى وحدها ، هى التى أوجدتها . . فهى حين تفتح عينها عليهاتعطيها وجودها وألوانها وأصواتها . .

فى كل يوم تصحو فيه « نانسى » . . من نومها يصحوا البيت كله معها . .فهذا المقعد الذى التصق بالحائط قد استحال إلى زرقته البديعة ، وتلك الساعة الدقاقه قد أصبح لها هذا الوجود

الصوتى . . وهذه الأزهار التى لم تكن لها رائحة ، قد أضحت ذات نسائم رقيقة منعشة . . كل هذا من لدن نانسى . .

أن « الاحساس » وحده هو الذى يبث الوجود فى هذا العدم . أن هذاالاحساس هو نانسى . . كيف تملأ نانسى هذا الخلاء وهذا الفراغ الذى يخيفها ؟ . . لابد من شئ . .

جعلت نانسى تدخن ، وتدخن على نحو فريد ، فهى تشعل سيجارة واحدة وتظل تشعل منها سجائرها طول النهار وطول الليل . . وتقوم فى الصباح الباكر فترمى فى صندوق المهملات أكداسا من بقايا السجائر بعضها طويل يدانى النصف ، وبعضها الآخر قصير . . فسجائرها لاتكاد تشعلها حتى تلقى بها ، وسجائر أخرى لاتلقيها إلا إذا احرقت أصابعها . .

وملت السجائر . . وأقبلت على الخمر ، تشربها مع أصدقائها.. فقد عرفت الآن فى غياب أبيها كثيراً من الشبان الذين يملأون فراغها دون أن تجد هى نفسها فيهم مايدفعها إلى الحرص عليهم .

. . أن أى مكان الآن خير من البيت وأن أى انسان خير من صورة أمها وذكرى جدتها . . وأن أى صوت أحب إليها من الصمت الحزين فى بيتها ودقات الساعة فى حجرة الاستقبال . .

لقد فتحت صدرها لكل إنسان ورأسها لأية فكرة ، وفمها لأى شراب . . . وأصابعها لأية يد . . .

ضاقت بالوحدة ، فهى اليوم فى كل حفل ، وضاقت بالصمت فهى اليوم تملأ أذنيها بكل نغم وكل حديث .

وضاقت بهذا كله . . فهى لاتدرى ولاتحس ولاتشعر ، قد أغرقتها الخمر ، وغيبتها عن أى شئ وأى لون وأى صوت . أن الخمر هى التى ترحمها من الوجود ، وتزفها إلى العدم . .

* * *

وما تزال نانسى تتخبط فى حياتها . . لاتدرى أى شئ تأخذ وأى شئ تدع حتى تسلل الداء الوبيل إلى رئتيها . . فشحب وجهها ، ونحف جسمها حتى تكاد تكون فكرة مجردة لجسم ممتلئ وقوام وعنق مشرع « قد كان » .

ولزمت الفراش ، وخيرها الطبيب بين الحياة وبين التدخين .. فترددت واختارت الحياة ، فهى لاتريد فى هذه السن ، أن تذهب إلى حيث ذهبت أمها وجدتها فى غلالة السجائر . . .

ولكن من الذى يمسك يدها فلا تمتد إليها سيجارة ؛ ويطبق شفتيها فلا تنفتحان للخمر ؟ . .

لا أحد غير نانسى نفسها . . فهى وحدها القادرة إن شاءت على إن تعيش وهى وحدها التى تسير فى سحابة من الدخان إلى حتفها أن شاءت أن تموت . .

عليها أن تمتنع عن التدخين ثلاثة شهور كاملة ، عليها أن تنسى أنها كانت تدخن لتحلم وتهرب ، وتملأ فراغها بنفسها . . ان الكوب الذى يمتلئ بالهواء . ولا يمتلئ بشئ آخر . لقد ملأته دخانا فما أجدى ، وملأته خمرا فما أجدى . .

* * *

. . هذه هى نانسى ممدة على فراش تحف به الممرضات ، وهذا هو الطبيب يجلس إلى جوارها ، وينظر إليها ، ثم ينظر إلى شاب جلس على مقعد يحمل فى يديه طاقة من الورد . نسى أن يضعها إلى جوار نانسى . . ويعود الطبيب إليها ويربت على خدها ويقول :

يا ابنتى . . أننى لا أكلفك المستحيل . أريد أن تكفى عن التدخين ، لاأدرى لماذا يفكر الشباب تحت سماوات ملبدة . بالدخان ولماذا لاتستطعمون إلا الماء الملون ؟

وتتململ نانسى . . وتتحرك فى فراشها وتتلوى وتقول : حياتى يادكتور . . جدتى ، أمى ، أبى . وحدتى . عزلتى . شبابى . . أنا يا دكتور . .

— ياابنتى أريد أن أهبك الحياة . . لتعودى كما كنت .

— إننى لن أكون غير الذى كنت . أن الحياة كقوس قزح ،

لا تظهر قوية حية صارخة إلا فى سماء من السحاب الداكن . .
أننى أخلق ألوانه السحاب لاعيش . .

— ابنتى . . أمرك بيدك ، حياتك بين أصبعيك . . أن لفافة واحدة تغريك بواحدة أخرى . .

* * *

يخرج الطبيب ويشير إلى الشاب الصامت الحزين أن يتبعه . . ويغلق الباب وراءه ويلتفت إلى الشاب ويقول له :
أأنت أخوها ؟

— بل خطيبها . .

— منذ متى . . ؟

— منذ أسبوعين .

— ولم تفلح فى إقناعها ! !

— أبدا . . هل مرضها خطير إلى هذا الحد ؟

— خطير ياولدى . . أننى خيرتها بين المرض وبين الطبيب . . المرض فقد ناصبتنى العداء . . أن الموت كثيراً مايغرى الناس بالراحة من الحياة .

— لاأمل فى نجاتها . . ؟

ـ لقد شممت رائحة السجائر فى يديها وفى فمها . .

ولم يكمل عبارته حتى دنت منه إحدى الممرضات ، فبادرها قائلا : هل طلبت إليك بعض السجائر ؟

ـ لا . . لن تطلب بعد اليوم . .

ـ . . .

وأكفهر وجه الطبيب ومال إلى الشاب يعزيه وقال : ولدى .. لقد كانت تملأ حياتك . . فأجعل ذكراها تملأ هذه الحياة . . . . وألا تكررت المأساة معك .

ـ بل سأعيش فى هذا الفراغ . . أنا الذى سأملأ هذا الفراغ ..

ـ بم ؟

ـ بالفراغ أيضا . . سأذهب إلى الدير !

ـ . . .

أم عباس

صديق اسمه عباس ، وهو شاب خجول جدا . كثيرون يعرفون اسمه ويعرفون قصصه وحكاياته فى باريس . أنا أشهد أن عباس هذا كانت الفتيات تعانقه بالقوة ، وقد رأيت فتاة باريسية جميلة والله العظيم ، تهددنا جميعا بأننا إذا لم نسمح لها بتقبيل عباس فستلقى علينا جردلا من النبيذ الأحمر . .

وتقدمنا الواحدة وراء الأخرى ترجوه وتقول :

يا عباس ياحبيبى أمك داعية لك . . ياعباس الغسيل والمكوى هنا غالية جداً . . فى عرضك . .

وعباس هذا صعيدى . طويل القامة أسمر اللون أسود الشعر أزرق العينين وكان يحسدنا على أننا نتكلم الفرنسية أما هو . فلا يعرف كلمة واحدة . .

واختفى عباس ولاأعرف عنه شيئاً ، وأخيرا ظهر أول أمس ليروى لى أغرب قصة حب وزواج سمعتها فى حياتى . .

سألته : اتجوزت ياعباس ؟

فأجاب : طبعا . . وأنت فكرك أنى حافضل مستنيك كده لحد ما أموت . . أنا قلت أجوز الأول . . إيه رأيك . .

قلت : طيب مبروك . . طبعا ليس لى رأى . .

قال : مبروك على إيه . . دانا أجوزت من زمان جوى . . ولامبروك ولاغيره دى كانت وجعة مهببة . .

— ليه ياعباس ؟ .

عباس هذا وحيد أمه . وأمه غنية عندها أرض وبيوت وفلوس وطيبة جدا . طلبت منه أن يتزوج إحدى قريباته . ولكن عباس . رفض قائلا : كلهم زى الرجالة . . اللى دراعها غليظ جوى عامله زى الفتوة . . واللى شلاضيمها كبيرة . .

وكانت أمه لاتغضبه . وإنما كانت تسكت وفى نفسها تقول : بكرة ربنا يهديه .

ويظهر أن هداه فعلا . فكانت إذا عرضت عليه فتاة سكت واستمع وراح يسأل عنها فكانت أمه تقول له : هذه بنت عائلات . . وهذه يتيمة الأب والأم . . وهذه متعلمة . . وهذه لاتخرج من باب ولاتطل من شباك . . وهذه ساقاها كالقشطة . . وهذه فمها صغير . . وهذه تحبه من يوم ولدت . .

ولكن الأم لم ترض بسياسة الصمت . . فقد اكتشفت بعد ذلك أن عباس « بياخدها » على قد عقلها . . ولكنه لن يتزوج .

واهتدت الأم إلى سياسة أخرى . . ففاجأته بفتاة فى البيت تدخل خلسة وتسلم عليه وتقعد ثم بعد لحظة تخرج . . أما عباس فكان يضع وجهه فى الأرض . . فهو يختشى ولايصح أن يرفع الانسان عينه فى عين واحدة ست . وبعد أيام يفاجأ عباس بأنه مدعو إلى عشاء . . وتدخل فتاة كالفتاة الأولى وتقدم الحلوى أو الشاى وتخرج . . وعباس وجهه فى الأرض . . وأمه تقرصه فى رجله لكى يرفع عينيه ولكن عباس يتحمل القرص ويسكت . .

وفى يوم يزور عباس أخته المريضة فيجد عندها فتاة تبحلق فى وجهه جيداً . . ويندهش قائلا فى نفسه : شوف ياخوى . شوف البنت عاتكلمنى كيف . . أنا أجوز الفاجره دى . .

ولكن عباس استطاع أن يلاحظ الشبه القوى بين الفتيات الثلاث . . وفى نفسه قال لابد أنهن اخوات أو قريبات . ولم يعرف إلا منذ وقت قريب أن هؤلاء الأخوات الثلاث لسن إلا فتاة واحدة . . تظهر كل يوم فى شكل وفى ملبس خاص . . أنها أفكار أمه العبقرية . ويضرب عباس كفا بكف ويندهش كيف أن أمه الغلبانة هذه . . تضحك عليه ، ويقول : أن كيدهن عظيم . . الولية اللى ما خرجتش من أوضة النوم تعمل الملاعيب دى . . والله عملتيها يا أم عباس !

ولم تستطع أمه أن تقنعه بشئ . . ولم تيأس الأم . وراحت تلح

على أقاربه أن « يعقلوه » وراحت تتظاهر الأم بالمرض لكى تؤثر على ابنها ، ولكن الابن لم يعقل . وليس فى حياته أحد . ولم يعرف فتاة واحدة . . ولاقلبه مشغول بأية فتاة أخرى فى أى مكان . .

ولكن الصدفة تدخلت فى حياته ووقفت كسيارة لورى محملة بمائة نمر وأسد . . فعطلت المرور فى حياته . . عطلت المرور بين عقله وقلبه ، بينه وبين أمه . . فلم يستطع أحد أن يقترب من هذه السيارة اللورى . . لاأحد . .

كان عباس فى القاهرة . . وكنا على موعد . وذهبت فى المكان المحدد والزمان المحدد . ولم أجد عباس . وبعد نصف ساعة عاد عباس ووجهه أصفر . ولابد أن تكون هناك قصة . لم أسأله ولكنه جعل يروى لى القصة . . لقد رأى فتاة جميلة جدا . . أنها جميلة جدا . . إنها تجنن . . وفى لحظة أحس كأنه فى باريس . . وأحس بثقة عجيبة بنفسه . . وأحس أن هذه الفتاة ستعاكسه ستتحايل عليه لكى يكلمها ، لكى يضع يده فى يدها . . لكى يعانقها . . ونظر إلى الفتاة هذه النظرة التى تعودها فى الشهر الذى عاشه فى باريس . . ولكن يظهر أن الفتاة لم تعجبها هذه الجرأة . . فنظرت إليه نظرة قاسية فى احتقار شديد . . وأفاق عباس ومشى وراءها لأول مرة فى حياته . وراح يقول لها :

— أنت فاكرة أنى باعاكسك . . أبدا . . دانا طالب الجرب . .

فى الحلال . . وحياة أمى . . عاوز أجوزك يعنى . . أنا صعيدى جد جوى . . نيتى شريفه والنبى !

وربما قالت له البنت كلاما لم يستطع أن يرويه لى . . ولكن عمكن استنتاجه . . مثلا لعلها قالت له : ياللا ياشاطر اجرى على أمك . . ياسم . . أنت فاكر نفسك ايه ؟ .

ولكن أعتقد أن نظرات عباس الطيبة الواقعية . .وشكله الوسيم ولهجته الصعيدية لابد أنها أثرت فى الفتاة تأثيرا غريبا . .

وعباس يكمل قصته ويقول : فى اليوم التالى ذهبت إلى نفس المكان ونفس الوقت ووجدت الفتاة بنفس الفستان . حاولت أن تتجاهلنى ولكننى ضبط عينها وهى تتفادانى . فاقتربت منها ومددت يدى فترددت هى وصافحتنى ومضيت أقول لها . . أن كلمتى واحدة . . وأنا لاأعرف الفصال . . هوه يعنى أنت لازم تمشى على الكلام اللى فى الكتب . . يعنى لازم أجرى وراك وتضربينى وبعدين أعرف بيتك وأسأل عنك وأجابل أبوك ولاأمك . . ولاأخوك . . وبعدين أجدم نفسى . . وبعدين ألف مكالمة فى التليفون وعذاب ووجع جلب . . وشوية هدايا . . ما أحنا نوفر الحاجات كلها . . والفلوس نخليها لعيالنا . . طبعا حيكون عندنا عيال . . أنا أحبهم جوى . . عاوز خمسة رجالة . . اتفضلى . .

وتفضلت الفتاة فى سيارة تاكسى كانت إلى جواره . ولم تسأل الفتاة عن المكان وفى السيارة قالت له إلى أين ؟ . . فقال : حالا ستعرفين . .

وحاولت الفتاة أن تسأله بوضوح . . ولكن هدوءه ولهجته الجادة والطيبة التى فى عينيه منحت الفتاة الكثير من الطمأنينة . . وأصرت الفتاة أن تعرف . فقال : سنذهب إلى أمى . . أنها هنا مريضة وستسافر غداً إلى الصعيد . . أنا عاوزها تشوفك . . الله أمال . . مش عروستى وألا إيه . .

هكذا اختار الفتاة وكلمها عن الزواج وعن الأولاد ونقلها فى سيارة ليفاجئ بها الأم وليفاجئ الفتاة نفسها . . وذهلت الفتاة التى لايعرف اسمها ولا من أى بلد . ووقفت السيارة أمام إحدى البيوت فى الزمالك . . ونزلت الفتاة ومن ورائها عباس . . ووقف بواب . . العمارة يحيي عباس بابتسامة . . وكل إنسان يرى عباس يبتسم له . . وعندما اتجه عباس إلى الأسانسير سأل البواب : أمى فوج . . ومين حداها . .

وأمام باب الشقة قال عباس للفتاة : شوفى انتى تجولى لأمى . . أنك بتحبينى . . وأنا حاجول لها أنى بأحبك . . والحكاية دى من خمس سنوات . . واحنا تجابلنا هنا فى مصر . . تسألك تجولك أنت تفسحت معى . . جولى لها لا . . تجول لك أبوك فين ؟ . . جولى مات . . وأمك ؟ جولى ماتت . .

وقالت الفتاة : تعرف أن ده صحيح .

فقال عباس : صحيح كيف يعنى ملكيش أهل ولا أب ولا أم . . ماشية على كيفك . .

وانفتح الباب . . وكانت أم عباس فى طريقها إلى الشارع . . ونظرت أم عباس إلى ولدها وإلى الفتاة وارتمت على صدر ابنها . . وكذلك الفتاة . . وأشار لها عباس أن تبتعد وبلاش الكدب ده . . وقال لها : دى تبجى أمى . . سلمى عليها بوسى إيدها . .

واحتضنت الفتاة أم عباس فى ذهول وبكاء . .

واندهش عباس جداً . . وعرف بعد لحظات أن أمه وافقت على الزواج حالا . . لقد كانت هذه الفتاة هى التى عرضتها عليه أمه من خمس سنوات . . فى فساتين مختلفة . . أما عباس فيقول : يا أخى أنا مكسوف جوى من أمى . . يعنى أنا طلعت حمار . . الولية العجوز دى تعرف الملاعيب دى كلها ازاى . .

وعباس لايصدق أبداً أن الصدفة هى التى دفعت بزوجته هذه إلى طريقة . . أبدا أنها خطة جهنمية من جهاز الكترونى عجيب اسمه : أم عباس . . .

ليلة من ألف!

فلما كانت الليلة التالية قالت شهر زاد للملك شهر يار : بلغنى أيها الملك السعيد أنه لما انعقد مجلس العلماء والشعراء والفنانين والأطباء حول الملك قال لهم : أننا اليوم نعيش وراء الأمم ولسنا أمامهم . . أننا نعيش «مع» الأمم المتحضرة ، ولسنا «من» الأمم المتحضرة . أنهم فى القرن العشرين . أما نحن فدون ذلك بعشرات القرون . . أننا نعيش فى عالم محدود شرقا برباعيات الخيام ، وغربا بابن خلدون ، وشمالا بلزوميات أبى العلاء ، وجنـوبا بأطلال امرئ القيس . . أنهم فى الغرب لم يبلغوا القرن العشرين إلا على أسنة القرون الأخرى . . على تجارب الأغريق والرومان فى الشعر والسياسة والفلسفة والعلم والطب والفلك . . أنهم لم يبلغوا القرن العشرين إلا بعد أن أصبحت الأرض كروية واسعة منذ أربعة قرون. وأن رجلا يونانيا واحدا زار إيطاليا فى ذلك الوقت وحدثهم عن أدب الأغريق المجهول ، فكانت أعظم ثورة أدبية وعقلية وفنية عرفتها الانسانية . . أنه رجل واحد . . وكأنه أعلن كلمة السر . . افتح ياسمسم فاذا الباب ينفتح وتتزاحم عليه جيوش الحضارة كلها ويجب أن نفعل كما فعلوا وإلا أصابنا ماأصاب لاعب الشطرنج .

فقال له : وما حكايته أيها الملك العظيم قال :

قرأت قصة لأديب نمساوى اسمه استيفان تسفايج اسمها « اللعبة الملكية » . . تدور حول أحد أبطال الشطرنج الذى سجنوه وحده فى غرفة مظلمة فلا أحد يؤنس وحدته ، ولاكتابَ يملأ فراغ نفسه وسجنه ، فكان يستعيد فى نفسه محفوظاته فى الشعر والنثر ويترجمها إلى كل اللغات التى يعرفها ، ويقولها بصوت هامس ثم بصوت صارخ ، وينطقها من الشمال إلى اليمين ، ومن اليمين إلى الشمال . . ثم أخذ يستعرض نظريات الشطرنج التى عرفها والتى قرأها والأدوار التى قام بها حتى نفذت ثروته اللغوية والأدبية . لقد أخذ يجتر ماضيه وهو يرتعد من النهاية المجنونة التى تنتظره وكاد يصيبه ماأصاب الملك جوعان بن ظمآن .

فقالوا له : وما الذى أصاب الملك جوعان بن ظمآن يا أيها الملك العظيم . . فقال : كان هذا الملك يقرأ كل شيء يجده ، ولايتعب من القراءة ليلا أونهارا فأطلق عليه أبناء شعبه هذه التسمية . وكان يحفظ ديوانا من الشعر كل يوم ويقرأ عشرين قصة وقصة واحدة طويلة وثلاثة كتب فى الطب والتاريخ والجغرافيا ويستمع ساعتين إلى الموسيقى ويتنزه ساعة فى الحدائق وفى الليل يذهب إلى المسرح وفى يوم أحس هذا الملك أن ذخائره الأدبية والفنية والعلمية ستنفد قريبا فجمع الحكماء فى دولته وخطب فيهم قائلا : إنما جمعتكم هنا

لأقول لكم أنى أخاف أن يصيبنى ماأصاب السمك فى قاع البحر وما أصاب أتباع بوذا وأتباع كونفوشيوس من قديم . . فالسمك فى قاع البحر له القدرة على الرؤية ، لأن ماء البحر ظلام دامس . فهو لايستخدم عينيه فى الرؤية فلا ضياء هنالك والعضو يموت بموت الوظيفة كما تقولون . وأخاف أن أكون كأتباع بوذا الذين يرفعون أيديهم إلى أعلى سنوات طويلة ، فاذا أيديهم تجف وتتصلب كأنها أغصان الأشجار لأنهم لايحركونها . وأخاف من مصير أتباع كونفوشيوس الذين يعيشون سنوات طويلة فى صمت دائم وفراغ مطلق ، فاذا عقولهم تتلاشى وحياتهم كذلك . . أنى أخاف أن يصيبنى ماأصاب مصر الفرعونية اولا حكمة يوسف عليه السلام أنى أخاف أن أفقد سمعى عندما لا أجد ماأسمعه ، وأفقد بصرى عندما لاأجد ماأراه ، وأن أفقد عقلى عندما لا أجد ما أفكر فيه .

ولما حاول بعض التجار أن يقاطعه صرخ فيه الملك قائلا : أننى أستطيع فى لحة عين أن أجعل الشوارع من المطاط ، وأن أبنى بمائة مليون جنيه مصنعا للقنابل الذرية كل ذلك فى لحظات معدودة ولكننى سأحتاج إلى عشرات السنين لكى أعلم من هو مثلك أيقاطعنى وألا يبصق فى الأرض كما فعلت أنت . .

وسكت الملك وقال : أيها العلماء . . أيها الحكماء انتشروا فى الأرض واجمعوا كتب الشعب والفلسفة فى عام وترجموها فى عام

آخر ، واكتبوها للرجال فى عام ثالث . وأعيدوا كتابتها للأطفال فى عام رابع ، وقدموها للفنانين والموسيقيين ليصوروها فى عام خامس . . وإلى اللقاء بعد خمس سنوات . .

وقالت شهر زاد : وبعد خمس سنوات يامولاى الملك السعيد : جمعهم الملك وتقدم منه كبير العلماء فى مملكته وقال لهم : أيها الملك قد نفذت مشيئتك . فى مملكتك اليوم علم كثير وفن كثير .

ونزلت الدموع من عينى الملك وقبل يدى العالم الكبير .

وأشار إلى مقعد كبير من الذهب والماس وقال : هذا العرش الكبير قد أعددته بمال الشعب لحكماء الشعب واليوم أستطيع أن أموت سعيدا . .

وقالت شهرزاد : وغدا أحدثك أيها الملك السعيد كيف أن الأطفال فى دولة الملك « جوعان بن ظمآن » كانوا يولدون وهم قادرون على القراءة والكتابة وكانوا أصحاء العقول معا وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . . .

وكانت النهاية

(نحن الآن فى سنة ١٩٨٠ . أنا أجلس فى البلكونة وأمدد رجلى إلى الأمام . تدخل قطة صغيرة وتلعب بشبشبي . ويجئ قط ذكر ويلاعبها . . ثم تترك شبشبي وتتعلق بالقط وأنا أبتسم . . فقد تذكرت شيئا . .

وعلى طرف البلكونة أرى عصفورين صغيرين يلتف أحدهما حول الآخر ثم يختفيان بعيدا عنى . . وأرى بعض الأزهار فى قصارى الزرع . . وفجأة يعلو صوت الراديو ويكون المغنى عبد الحليم حافظ . صوته غليظ . . وفجأة تظهر زوجتى فى روب أحمر ومحزق عليها . وفى قدميها تضع حذاء ورديا وبين الحين والحين تنظر فى ساعتها . . وتسحب مقعدا وتجلس إلى جوارى .. وتضع يدها على كتفى وتميل ناحيتى وتقبلنى وأشم رائحة عطرها وأقول : الله . . إيه ده ؟

هى : الله إيه . . ؟ عجبتك الريحة دى ؟

أنا : جداً . .

هى : طيب أنت عارف اسمها إيه ؟

أنا : طبعا . . دا أنا طول عمرى متخصص فى الروائح . . دا عندى مناخير تشم العطور وهى لسه أزهار على الشجر . . طبعا دى رائحة الماجريف التى أحبها . .

هى: طيب إيه رأيك أنها مش ماجريف .. دى ريحة جديدة اسمها « بلاش تبوسنى » . .

أنا : أتحداك فأنا لاأخطئ فى الروائح أبدا .. يعنى جايز اغلط فى حاجات كتير . . لكن إلا الروائح . . دا أنا فى شبابى . .

هى: حترجع تانى تقول شبابى . . أنا عارفه أنت حتقول إيه . . حتقول أنه فى مرة من المرات جماعة أصحابك اتراهنوا على الريحة اللى حطاها ليلى صاحبتك . . وأنت الوحيد اللى كسبت الرهان .. مع أن ليلى غيرت الريحة اللى بتحطها فى اليوم ده ! . . وعارفه حتقول إيه كمان . . حتقول أنك كنت بتفتكر البلاد والشوارع والبيوت بالريحة . . وأنك كنت فاكر نفسك الوحيد اللى بالشكل ده ولكن اكتشفت أن محمد عبد الوهاب كده كمان . . مش ده اللى أنت كنت حتقوله . . ؟ عارفه كل حاجة . . أنت إيه .. خلاص ماعندكش حاجة تقولها . . ؟ أنت خلصت من كل حاجة ؟

أنا : برضه أنت متعلمتيش حاجة منى .. أنت تسرعت . . وإيه رأيك أنى كنت حاقول حاجة غير كده . . كنت حاقول حكاية عمرك ما سمعتيها . .

هى : مش معقول طبعا .. دا أنت فى الشهر الأول من زواجنا حكيت عن نفسك كل حاجة .. وبينى وبينك أنا كنت مسحورة .. حكايات وقصص ومغامرات من أوروبا وآسيا واستراليا وأمريكا فى كل الدنيا . . والسبب الحقيقى يرجع إلى جمال باريس ، وحرارة روما ، ولمعان برلين ، وألوان طوكيو ، ونظافة استراليا ، وجنون أمريكا . . فأنا تزوجتك فى زفة هائلة من القصص والمغامرات .. شعرت فى الشهر الأول أنى أمشى على مسرح فوق السحاب . . أو أنى اتمدد على بساط جميل ، وكنت أراك رغم أن بينى وبينك ٣٥ سنة . . كنت أراك شابا صغيراً ليس عندك شعر أبيض وليس عندك طقم أسنان . . شاب لايهمه أحد . شاب لايشعر بوجودى . شاب أنا متعلقة به . متعلقه به مع مئات الفتيات . . وكنت أشعر بالغيرة تأكلنى . . وأشعر بالعذاب فى حبه . . أشعر أننى فى معركة انتخابية كل المرشحات فيها ملكات جمال . . كنت أحلم بأنك شمشون الجبار وأنا الفتاة دليله المسكينة . كنت أحلم بعضلاتك ، بصدرك العريض العالى . . كنت أتمنى أن أنام على مخدة سوداء محشوة بشعر صدرك . . ولكن . . أنت عارف . .

أنا : عارف إيه .. حترجعى تانى . عاوزه تقولى إيه ..؟ يعنى أنت نهار ماتجوزنا ماكنتيش عارفه أنى فى سن أبوك . . ؟ مش عارفه أنى أكبر بثلاثين سنة . . ؟

هي: بخمسة وثلاثين من فضلك . .

أنا : بخمسة وستين سنة . . مش أنت اللى كنت بتقولى لى : باحبك ... باموت فيك . . مش أنت اللى كنت تقومى من النهار تشدى فى شعر رأسى الأبيض . . مش أنت اللى كنت تقصى شعر رأسى الأبيض . . . ؟ دلوقت إيه اللى حصل . . ؟ اتغيرت.. خلاص . . قرفت منى . . . بقيت كخه . . بعبع . . كل ده بعد شهرين . . ؟ إيه مالك ؟ . . . ناقصك إيه . . ؟ عاوزه إيه . . مين اللى منعك تتجوزى عيل صغير فى سنك . . ؟ أنا اللى أخذتك بالقوة . . ؟ أنا اللى سحبت صوابعك وحطيتها على قرص التليفون وخليتك تطلبينى طول الليل وطول النهار . . أنا اللى كنت بقول أن سماعة التليفون هى المخدة اللى بانام عليها ؟ أنا اللى كنت باقول أننى سأنتحر إذا لم أتزوجك . . أنا اللى كنت باقول أن البنت تبقى مغفلة إذا تزوجت شابا فى سنها . . لأن الشاب سيعطيها الجنس الذى لاتحبه ، ويحرمها من — الحنان الذى تحلم به . . ؟ ده مش كلامك . . كل ده نسيتيه . . وبعدين لك عين تتكلمى . . ؟

هي : اسمع . . كلام فارغ مش عاوزه .. أنت فاكر نفسك إيه.؟ أنا ماجبتش حاجة من عندى . . أنا كنت تلميذة فى مدرستك يا أستاذ . . أنا فتحت عينى على مقالاتك . . فتحت قلبى لكلامك عن الحب . . كلامك عن الحنان . . عن الحرية . . كلامك عن النعيم

الذى تحلم به الفتاة ولا تجده إلا فى أحضان رجل لا فى أحضان شاب. مش هو ده كلامك . . ؟ تفتكر اعمل إيه . . ؟ تفتكر أنت كنت تعمل إيه لما كنت فى سنى . . كان عمرى ١٧ سنة لما كلمتك . . لما شفت صورتك فى الجرايد . . لما سمعت صوتك فى الراديو . . لما المذيع سألك ليه أنت لسه عازب . . أنا لسه فاكره صوتك . . أنا لسه سامعه صوتك الهامس وأنت بتقول : والله مفيش بخت . . مفيش قسمة ! أنت فاكر لما مذيع تانى قال لك : تفتكر أن واحد فى سنك ممكن يتزوج ؟ فقلت له أنت : اعتقد أنه ممكن جدا وأننى أفكر فى هذا جديا ؟ مش عارفه إيه اللى حصل لى فى اليوم ده . حسيت أنك بتكلمنى . . أنك بتنادينى . . أنك عاوزنى . . ولما قلت لك الكلام ده ، قلت لى : ممكن تكونى أنت . فاكر لما شفتك . . فاكر لما كنت مكسوف زى تلامذة المدارس . أنا لا أنسى اليوم ده . . شعرك أبيض ووجهك أحمر . . وقطرات عرق على وجهك . . كأنها دموع عقلك . . أو كأن الدم كان يغلى فى وجهك حتى أذاب الجليد الذى يتوج رأسك . . آدى ياسيدى اللى حصل لى . .

أنا : اسمعى بقى . . أنت تلمى نفسك وتتكتمى ياقليلة الأدب . . افرضى أنى مش جوزك . . افرضى أنى أبوك . . حد يكلم أبوه بالشكل ده . . مش عيب برضه . . أسكتى . . هاتى لى الدوا . .

هي : ياريتك زى أبويا.. ياريتك زى جوزى .. ياريت عندى دوا زى اللى أنت بتاخده . . دوا يشفيني ! . . دوا يريحني .. دوا..

أنا : الله . . يريحك من إيه ..؟ أنت طلعت فيها قوى .. إيه . . عاوز أعرف ناقصك إيه ؟ عاوز أعرف أنت بقى لك كام يوم بتكررى النغمة دى. . إيه اللى حصل . . حاجات غريبة ملاحظها وساكت وأقول ياواد اسكت . . مفيش داعى لسوء الظن . .

هي : عاوز تعرف إيه اللى ناقصني . . ؟

أنا : طبعا . .

هي : ليه . . عاوز تعرف ؟ اشمعنى النهاردة ؟

أنا : كل يوم مش النهارده بس .. مش جوزك ؟ مش حبيبك أنت بتغمضى عينيك . . مش عاوزه تشوفى شكلى وأنا باقول كده . . ؟ عاوزه تحلمي بواحد تانى . . أنت طبعا عاوزه تسدى ودانك . . لكن أبدا . . أنا حافضل أقول لك الكلام اللى زى السم ده . . حيعمل فيك إيه السم ؟ ولاحاجة . . لسه شباب . . والله أنا كنت مغفل . .

هي : على كل حال مش بس أنت اللى مغفل .. تحب بقى أقول لك إيه اللى ناقصني ! . . ؟ مش حتقدر عليه . . لكن مش حاخبي عليك . . استنى . . اخرج بره جتك داهية . .

أنا : إيه ده . . ؟

هي : باقول للقطة والقط اللى فايقين ورايقين عالصبح .

أنا : . . . .

هي : عارف الشنطة الورق اللى هناك دى .. هو ده اللى ناقصنى . كل يوم الشنطة دى مليانة روشتات ! . . روشتات كتبها دكتور اعتزل الطب . . دكتور معروف جداً . . وقد درس الطب فى الخارج . . وهو الآن لايؤمن بالطب . . أنه يداوى الناس بالبخور والأحجبة والفسوخة . .

أنا : إيه ده مش فاهم أنت بتخرفى وتقولى إيه . . ؟ عاوز تقولى إيه . . ؟

هي : مش عاوزه أقول حاجة .. كل اللى أنا عاوزاه هو أنى أرمى الروشتات دى فى الشارع . . عاوزه أديها للبواب . . أو لبنت البواب . . اللى تلميذة فى الجامعة . . أنها تكمل دروسها . . أنها أحسن منى . أنا اختصرت الحياة . . وأعيش الآن مع رجل اختصرته الحياة .. عارف الروشتات دى تبقى إيه يازوجى العظيم؟ يازوجى الشاب . . أقصد الشايب . . إنها كتب حضرتك . . كتب حضرتك اللى سهرت فيها الليالى . . ونمت فيها الشهور . . وجعلت من صفحاتها سريرا من الحرير ومخدات من ريش النعام ، ومن كلماتها

السودة مصابيح كهربائية ، تتعلق فى وحدتى المظلمه . . كل مرض لقيت له علاج فى كتبك . . كل سؤال يدور فى رأسى ليه عشرات الأجوبة فى كتبك . . .ولكن لم أجدك فى هذه الكتب . . أنت وردة لها عطر ، ولكن ليس لها أنف ، أنت شمس تضىء ولكن ليس للشمس عيون ترى ، أنت بيانو له أوتار وأنغام ولكن ليس له أذن تسمع . . وإذا كانت له آذان فليس له ذوق . . وإذا كان له ذوق فقد مات هذا الذوق من زمان . . إن هذه الروشتات أصبحت مصدر مرضى وتعبى . . أنها تشبه النعش الذى دفنت نفسى فيه . . وإذا كنت أنت إلهى ، فأنا ابليس الذى رفض أن يسجد لآدم . . سأخرج من بيتك . . من حياتك . . فاكر الكلام بتاعك . . ؟ فاكر لما حضرتك كتبت على لسان البطلة « نورا » بطلة مسرحية « بيت الدمية » للكاتب النرويجى أبسن عندما اقفلت الباب فى وجه زوجها لأنه يعاملها كأنها ترابيزه أو كأنها كرسى . . ؟ أنه لايعاملها باحترام لحريتها وشخصيتها . . ألم تقل أن هذا الباب قد أخذ صوته يرن ويتردد فى . . ؟ وأنا أقول لك : والقرن العشرين أيضا . . وسيظل صوته إلى القرن الواحد والعشرين بفضل حضرات الأساتذة أمثال حضرتك . . لماذا لاتكتبون . . على هذه الكتب أنها صالحة حتى سنة كذا . . ؟ كما يكتب الأطباء على زجاجات الأدوية وعلى الحقن . . ؟ لماذا تخدعون الناس .. كيف يستريح ضميرك أمام جريمة بشعة كهذه .. ؟

أنا : بتقولى جريمة . . جريمة مين . . ؟ جريمتى أنا . . ؟ وجريمتك أنت نسيتها . . جريمة الكلام فى التليفون حتى ساعات متأخرة من الليل مين اللى كنت بتكلميه حتى الساعة الثالثة صباحا.. جريمة الاستماع إلى الأغانى والتنهيد والبكاء . . جريمة الفستان العريان من الضهر والصدر والبحلقة من الشباك بالساعة والاتنين .. أنت فكرك أنى أنا أعمى . . أنت فكرك أنى أنا مش عارف أنت بتعملى إيه . . ؟

حكاية دكتور الأسنان والخياطة والحلاق وعيد ميلاد سـ وخطوبة ميرفت وجواز سهير وولادة أميرة وعزومة آمال . . كل ده تفتكرى أنا مش عارفه . . عارف طبعا . . وبأقول يمكن تعقلى . . يمكن لما أعطيك الحرية تعرفى تتصرفى فيها . . وأنا عارف أن الحب يموته الكبت والضغط . . ولكن أعرف أيضا أن الحب تقتله الحرية الزايدة عن اللزوم . . كام مرة التليفون يتقفل لما آجى ارفع السماعة . . كام مرة صاحباتك يقلدونى عندما اسعل وأقول لهم عيب وأنت برضه بتضحكى وتقولى لى كلهم بيحبوك . . ثم تعالى هنا يا قليلة الأصل . . يا أم عين فارغة . . أنت كنت حتتجوزى مين . . مين بقى فى البلد اللى كان حيتجوزك . . أنت ناسية أنت مين ؟ . . أنت نسيت الجرادل . . نسيت القصارى .. نسيت الحقنة الشرجية نسيت حاضر يادكتور أيوه يادكتور . .

على عينى يا دكتور . . نسيت أنك كنت بتسهرى طول الليل تردى على الأجراس فى المستشفى . . طول الليل تشيلى شباشب وتحطى قباقيب وتغسلى الفوط . . نسيت ياحضرة الممرضة . . . ؟

هى : لأ مانسيتش ياحضرة العيان .. أنت اللى نسيت .. فاكر أنت حضرتك كتبت تقول إيه . . مش أنت اللى قلت : أن هناك نوعا من الحب اسمه حب الطوارئ . . حب فى الغارات الجوية . . حب يتم فى المخابئ . . حب المسافر لمضيفة الطائرة ، حب المريض للممرضة ، حب رواد الكباريهات للراقصات وبنات الليل . . مش حضرتك اللى قلت كده . . وحضرتك اللى قلت أن هذا النوع لاينفع لأنه يتم فى حالات غير عادية . . فى حالة ضعف الرجل . . الرجل اللى فوق السحاب . . والرجل اللى ترفعه الخمر إلى مافوق السحاب ، الرجل اللى فوق السرير . . كلهم فى حالة غير طبيعية من الخوف والسرور . . مش حضرتك اللى قلت لنا أن حب التلامذة هو أيضا نوع من الحب فى حالة الطوارئ . . فالتلميذ فى حالة حرمان شديد ، وفى حالة خوف من الامتحانات ، وخوف من المدينة الكبيرة التى تعيش فيها ، وعنده احساس بالضياع . . عنده احساس بانه غرقان وتايه وتافه . . هذا التلميذ يتعلق بأى خيط بأى قشاية . . بأى موجة . . والبوصة فى عين المحروم تبقى عروسة . . وقلت لنا أن هذا الحب لاينفع . . ولما أنت عارف ده كله . . ليه اجوزت ياحضرة الأستاذ . . . ليه جرجرتنى وراك

وأنا تلميذتك وبنتك . . امش انجرى بره جتك الغم .. ياالله بره ..
دى القطه برضه . . ومش أنت اللى كنت بتقول لنا . . اتفسحوا
يا بنات . . اتكلموا فى التليفون . . انزلوا فى الشارع . .
وافتحوا عينكم على ابن الجيران . . مش أنت اللى كنت بتقول أن
الرجل الضعيف هوه اللى بيخاف من المنافسة . . مش أنت اللى
قلت أن الرجل العاقل هوه اللى يعرف متى يفكر فى الزواج ،
ومتى يفكر فى أن الزواج بالنسبة له مستحيل . . هل أفهم من كده
أنك راجل مش عاقل . . ثم حاجة ثانية كمان . . حكاية أننى ممرضة
مالها الممرضة عيبها إيه . . مش التمريض عمل شريف . . مش
أنت بتقول أن البنت يجب أن تعمل . . مش أنت اللى بتقول أن
المجتمع أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أعور لأنه يرى بعين
واحدة ، مجتمع مالوش ميزان علشان الميزان فيه كفة واحدة . .
ولازم البنت تشتغل علشان تبقى لها نفس الحقوق والواجبات
والحريات والأخطاء اللى عند الراجل وما يجيش فى يوم من الأيام
يقول لها : كفاية بقى أنا تعبت . . أنا لاأنكر أننى شفت الجنة
بعينى . . شفت سورها وبابها ودخلت الجنة أيضا . . وشفت النار..
أنا حتى ماشفتش النار . . أنا لقيت نفسى فيها . . بالاختصار . :
أنا مش عاوزه اقعد . . شوف لك ممرضة غيرى . . أو إذا كنت
عاوزنى ممرضة لك . . طلقنى وأنا أخدمك من عينى فأنت صاحب
الفضل على . . أنا مانكرش . . لكن وجودى معك يحزننى . .

يجعلنى أتذكر دائماً أنك غير مؤمن بتعاليمك ، أنك غير مؤمن بفلسفتك — أنك تكذب على نفسك وعلى الناس . . .

أنا : اعقلى . . الناس تقول إيه . .

هى : مايهمكش الناس أنا حاقول لهم . . كل الناس عارفه حاجات كثيرة . . . أصحابك وجيراننا عارفين .. أنت ناسى أنك شتمتنى قدام الخدامين . . أنت عارف . . الخدامين دول إيه . . محطات إذاعة وتليفزيون . . فاطمئن فهم سينقلون قصتك بالحرف الواحد .. وإذا كانوا حيغيروا فى القصة شوية . . فأنت كمان غيرت فى كل قصصك . . أنت شخصيا أكبر تغيير فى قصصك . . أنا عارفه أنك لاتحب الكلام معى . . أنا عارفه أننى تافهه . . أنا عارفه أنك ندمان . . وعارفه أنك ماعندكش مانع تطلقنى . . وعارفه أن الناس إذا قالوا أنك طلقتنى لسوء أخلاقى . . فهذا من رأيك أيضا . أليست المرأة فى نظرك مستعدة دائماً للخيانة بشرط ألا يعلم الناس ، وإذا عرف الناس فانها تجعل من الخيانة مبدأ . . كل ده كلامك . .

أنا : . . . .

هى : . . . أنا اعتبر سكوتك موافقة على الطلاق .

أنا . . . .

هي : ولكن تعرف مدى حبي لك وإخلاصي السابق لك . . سأتزوج رجلا هو الآخر معجب بك جداً . أنه شاب فى مثل سنى . . وقد قررنا نحن الاثنين أن نكون أحسن تلميذين فى « مدرسة الحب » التى فتحتها منذ ثلاثين سنة . . هل تغضبك هذه التضحية . . أنت مش بتقول أن المرأة تضحى بالمبدأ من أجل الشخص . . ومش أنت اللى بتقول أن الرجل يضحى بالمرأة من أجل نشر تعاليمه . . ، يعنى من أجلك . . وأنت يجب أن تضحى بى من أجل مبدأ الحب . . والحرية والراحة والسلام بين الناس

أنا : . . .

هي : هذا الرجل هو الذى سيدخل الآن ويأخذ هذه الروشتات. هذه الكتب . . سيجئ بعد لحظات . .

أنا : زى مايعجبك . . .

هي : تسمحى لى أبوسك فى فك . . فهذه القبلة لن يكون لها أى معنى زوجى . . إنها قبلة البنت لأبيها . .

« وتدور القطه والقط حولنا . . ويدق الجرس . . وتذهب

لفتح الباب ويكون الداخل حسنين . . أنه سائقى . . إنه يعانق الكتب كما عانق يهوذا السيد المسيح . أن يهوذا هو الخائن . . ولاأدرى كيف أن رجلى داست على ذيل القطة فصرخت وخربشت رجلى . . وسالت الدماء وفزعت من منظر الدم وأخرجت المنديل من جيبى . . لأضعه على الجرح . . ولكن زوجتى سبقتنى إلى المنديل ومسحت به دموعها . ثم مسحت به دمى . . وضغطت على قدمى فكدت اختنق . . ولم أشعر بشئ . . لقد تراجعت فى مقعدى وأغفيت لحظات وفتحت عينى على المنديل فوق قدمى وإلى جواره ساعة ذهبية وغويشة ودبلة وبضعة قروش . وصورة على الأرض ممزقة . . إنها صورتى ممددا على سرير فى أحد المستشفيات . . وقد اختفت صورتها هى . . وكانت جالسة إلى جوارى . . ونظرت إلى القطة والقط . . وتركتهما فى الغرفة وأقفلت الباب ورائى واتجهت إلى مكتبى لاسجل على نفسى هذه المشاعر . . ودون شعور بصقت على الأرض كأننى أضع نقطة لسطور مكتوبة فى الهواء لا يراها أحد سواى ....

هروب

كان ذلك فى الخريف ، وقد تهيأت الطبيعة لمقدمة ، فعلقت أستارا من الضباب الكثيف ، وتوحلت الطرقات ، وهب عليها هواء بارد مسموم يمرق من خلال نافذة عربة تجرها خيول منهكة ، إلى أنف شاب ، متسللا إلى رئتيه فيسعل سعالا عنيفا جافا يكاد يقتلع احشاءه ويمزق جنبيه فيضع يده على صدره كأنما يحول بينه وبين بركان من الدم يعجل بهلاكه .

وتتوقف العربة عند بيت قائم عند نهاية الطريق ، وقد انسربت من نوافذه شعاعات رفافه من ضوء سادر ، كأنما تستقبل الزائر العليل . . وينزل ذلك الشاب ويطرق الباب ويتسمع إلى أصداء طرقاته يلاحق بعضها البعض . وهى تستأذن على الحجرات الصامتة التى ضمت بين جدرانها أسرة مكدودة من عمال المناجم . يقضون يومهم يضربون بطن الأرض ، ويستجدون مكنونها من المعادن يفنون ليلهم فى نوم هادئ .

وينفتح الباب ، ويتلقاه رجل فارع القوام ، تبدو على ملامحه

قسوة الحقول ومرارة العيش ، ويروح ينتزع من عينيه آثار النوم، ولا يكاد يراه حتى يقول :

— أنت ؟ أهلا بك . ! فى مثل هذا الليل القاسى تجيئنى ؟

— . . .

— مابك ؟ أما تزال متعبا ؟ لقد بلغتنى رسالتك الأخيرة . . وأنى لبالغ الحزن على حالك . . أنك مشغوف تعال اجلس هاهنا بالقرب من المدفأة فما يزال بها وميض نار . . قل لى ، ولاتؤاخذنى ، لماذا أنت ممتنع عن العمل فى أى مكان .

— أى عمل ؟ وأية حياة ؟

— آه . . هذه نغمة قديمة . تذكرنى بانسان عزيز على وعليك وإن كنت لم تره . . أنه أبوك . كان يقول : أن الانسان يجب أن يكون مخلصا ومؤمنا « بشىء ما » . والحياة من غير إخلاص أو إيمان لامعنى لها .

— إيمان ؟ وإخلاص ؟ ومعنى ؟ هذه كلمات غريبة وقديمة .

— قد تكون غريبة هذه الكلمات . ولكنها لن تظل كذلك . . إذا أردت أن تعيش فاجعل لحياتك معنى . أو هدفا . . أذكر أن أباك . وكان حكيما طيبا ، كان يحدث شابا فى مثل قلقك وحيرتك ولاأقول يأسك ، فكان ينصح له أن « يستطعم » الحياة — أن يجعل

لمذاقها طعما ، وأن « يحب » شيئا . . ولكن الشاب لم يطب له حديث أبيك فراح يسأله : أى حب وأية حياة ؟ فقال له أبوك : أن تحب عملك الذى تؤديه وحياتك التى تحياها !

— أن هذا الشاب محق فيما سأل .

— هل تستطيع أن تقول لى كيف تعمل تحت سطح الأرض فتستخرج الفحم والحديد ؟

— هل تريد أن تحتقر عملنا . وأنه لعمل شريف تؤديه بصدق وإخلاص ؟

— ثم ماذا بعد ذلك ؟

— نعاود العمل من جديد وننصح لأبنائنا أن يقوموا به من بعدنا ، وهل تظن أن رسالتنا هينة ؟ .

— أبدا . . أن رسالتكم خطيرة ، بالغة الخطورة ، فأنتم تستخرجون الفحم الذى تدار به مصانع الذخيرة لقتل الملايين من الأرواح البشرية البريئة .

— لاتنس أننا نؤدى « واجبا » فحسب أما إذا كان بعض الناس يستخدم الفحم للقتل ، فان الكثيرين يموتون بردا إذا لم نخرجه لهم .

— وماذا لو ماتوا من البرد أو من الحر ؟ ولماذا يعيشون . وما معنى الحياة . . ؟

– هذه أسئلة أعلم سخفها . ولكن أليس كل شيء فى هذه الحياة سخفا فى سخف . . نعمل وننام . ونأكل ونشرب وتولد ونعيش ونموت . . ثم ماذا بعد هذا كله ؟ إلى أين يذهب هؤلاء جميعاً ؟

– هاها ! إنهم يذهبون إلى حيث ستذهب أنت الآن . إلى الفراش ليستريحوا . . أنك متعب ولاشك . . أذهب واسترح . . هذه حجرتك . . وأرجو لك نوما هادئا .

* * *

وفى الطريق كان يرمق الناس بنظرات حادة كلها سخرية ودهشة . فهذا حشد متجه يمينا وتلك جمهرة اتجهت يسارا . والكل فى عجلة ، وفى حركة كلها يأس وأمل . . مامعنى هذا كله ؟ وإلى أين يذهب هؤلاء ؟ وهذه البيوت القائمة فى سكون حتى الفناء . . ماذا جرى لها ؟ وهذه الحركة المستمرة فى الشوارع الصاخبة ماذا دهاها .. كل ذلك يدور فى رأسه ، ثم يطبق شفتيه بغيظ وتجره قدماه إلى بيت كثيرا ماجلس فيه من قبل . . كل شئ قد أصبح الآن « من قبل » . فلم يعد له « بعد » .

وتتلقاه فتاته القديمة التى أحبها « من قبل » ورفيقة طفولته الحزينة الباردة . . فلا يكاد تراه حتى تستحيل إلى بهجة ناضرة تبدد حزن الدنيا كلها . ولكنه لايكاد يراها على هذه الصورة

المشرقة حتى تتبلد نفسه بسحابات الأسى . فيمد يدا مرتجفة فتدرك أن هناك شيئاً . . وتقول :

— كنت دائماً أتمنى أن أعانقك وأقبلك لولا الذى يخيفنى من عينيك وشحوب وجهك . . ماذا بك ؟ . .

— لاتسأليني فقد جئت أودعك قبل سفرى . أنى اعتزمت رحلة . . رحلة طويلة .

— وستكون وحيدا فى رحلتك . . ؟

— أنى وحيد منذ خلقت . أن أمى ماتت ولم أرها ، وأبى مات ولم أره ، واخوتى قد استردتهم الأرض ولم أر منهم واحدا . وعمتى التى كفلتنى ، ماتت قبل أن أبلغ السابعة من عمرى . .

— هذه لهجة غريبة . .

— ما الغرابة هنا ؟ . . كلكم تقولون أن هذه لهجة غريبة أو نغمة غريبة .

— لابد أن شيئا قد حدث فى حياتك . .

— أن شيئا لم يحدث . . أنى هكذا ولاأتصور كيف لايكون الناس مثلى . كيف يعب الناس الحياة عبا ، كيف يفتحون عيونهم حتى يعميها الضياء ويفتحون بطونهم حتى يملأوها بالنار والحديد . .

لماذا لايصابون بهذا « القرف » . ألا تعرفين « القرف » . هذا « الغثيان » . . ألا تحسبين أن روحك تطفو على جسدك . . هذا

ـ . . .

ـ هل ترين هذه الكراسة ؟ . . أنني أدون فيها أحساساتي . . ولكن لماذا ؟ لاشيء إلا لكي أوهم نفسي أنني قادر على أن أعمل شيئا . .

ـ لقد كفرت بأشياء كثيرة . . وبالحياة كذلك ؟ .. أية حياة ..

ـ حياتك أنت على الأقل . .

ـ أنني لا « أعرف » ماتقولين .

ـ وهذا هو عين الخطأ . . في حياتك كلها .

ـ تقولين خطأ ؟ . .

ـ طبعا . . يجب أن تفرق بين الحياة وبين « المعرفة » . يجب ألا تقضي أيامك كلها تفكر في « معرفة » الأشياء . . فتضيع عليك « الحياة » . . يجب أن « تعيش » حياتك . .

ـ كلام كنت أقيم له وزنا « من قبل » . .

— « من قبل » ماذا ؟ . .

— « من قبل » أن أخذ قرار الرحلة الطويلة . . لقد آمنت أنت وغيرك بما كفرت به . . آمنت بهذه الحياة . . أو بالحياة وأنتم فى غمرتها تخادعون أنفسكم وتغالطون وتكذبون . . .

— اسمعنى . . أظن أن ثقافتى تسمح لى أن أقف منك موقف الند

— لن تقفى بعد اليوم ندا لى ولا عدوا ولا حبيبا . . ولن تكونى لى ولن أكون لك شيئا . . .

— سأكون مرارة على لسانك . . « وقرفا » لنفسك . . ولكن لن أكون لك شيئا .

— أننى أحسست منذ زمن طويل أن لى رسالة تستصرخنى انسانيتى أن أؤديها لأننى استطيع أن أجعل منك فتى يقول للحياة : نعم ولبيك . .

بل « نعم وسحقا لك »

— أنك متعب تماما . . لا من شىء ولكن من نفسك . .

— وأنت مستريحة من كل شىء ومن نفسك ؟ . . عهدى بك قلقه . . فماذا حل بك حتى أصبحت هادئة على هذا النحو ، أى سلام ذلك الذى تشرق شموعه فى قسمات وجهك كأن شعرك

الأسود وهو ينزل على جبينك رهبان تزاحموا على النور المقدس . .

— إننى فراشة أحبت وعبدت « شيئا ما » فى صمت وهدوء . . أما أنت ففراشة أيضا ولكنها انكرت الضياء فضلت وحارت . .

— هنيئا لك بعالم خلقت لتكونى فيه . ووداعا أننى حددت مصيرى واخترته .

— أننى أعرف إيمانك بالعقل على الأقل . .

— لقد سلمت للعقل حتى جمدتنى برودته ؛ واستسلمت للقلب حتى أحرقتنى حرارته .

— فأنكرتهما معا ؟ ماذا بقى لك ؟ لقد صفيت حسابك مع الحياة

— تماما . لقد أصبحت «ماضيا» لم يعد لى حاضر ولا مستقبل ، ولاشئ يربطنى بأحد ؛ وبعد لحظات سأستحيل إلى « شئ » وداعا.

* * *

ويبلغ الشاطئ . .

ويهرول نحو زورق ؛ ويفرغ كل مامعه من نقود ومتاع فى الماء . . ويمضى بزورقه مذهولا « شاردا » ويفتح فمه لرشاش البحر . . كأنما يريد أن يتذوق آخر لحظة من الحياة . . ويسقط

فى قلب الزورق من جديد ويمسك بالمجدافين كأنما يتحاشى الغرق ، ثم ينتصب واقفا ويهوى بنفسه إلى الماء . . فيلطمه الموج ويركله ويضمره فى التو .

وكأن شيئا لم يحدث وكأن مشكلة لم تحل ، وكأن حياة لم تنته وقرارا لم يتخذ !

حواجز من الزجاج

— واليوم كيف حالك ؟

— ابدا . . لا جديد . . اليوم كالأمس والأمس كالغد . . أن الإنسان الحى هو الذى يتغير ، أما الميت فلا يتغير . . وليس له يوم ولا غد ولا أمس . . فالأيام عنده سواء !

* * *

حوار أسمعه كل يوم عندما ما أراه يسير فى شارع سليمان باشا رائحا غاديا ، يرفع يده يحيى سيارة منطلقة أو سيارة واقفة أو فتاة تطل من أحد الفنادق أو يعتذر رقيقا عندما تصطدم ذراعه بأحد المارة ، ويضرب الأرض برجليه كأنما يضرب رؤوسا تطل إليه من تحتها ، أو كأنما يمر بخاطره شئ يكرهه ولا يريده أن يخرج من تحت الأرض . . من تحت التراب بعد أن دفنه منذ وقت طويل . . أنه يشغلك إذا ، سرت معه ، يشغلك بنفسه عن كل شئ . . ولا يسعك إلا أن تمد يدك إلى المظروف الكبير الذى يحمله معه دائما . . مظروف قد امتلأ بالصور . . صور ورسائل الفتيات

.. وبعض « الوصولات » والتوقيعات وأرقام التليفونات وبقايا مناديل عليها أحمر شفاه ..

لا يفارقه هذا المظروف ولا تكاد تنظر إليه حتى يقدمه لك وعلى وجهه إبتسامة تزوره من حين لآخر . !

وحين تنظر إلى الصور ينتفض هو ، وحين تمر بأصابعك عليها كأنما تمر على طلاسم تبعث فيها الحياة .. فاذا أحمر الشفاه ينتقل من المناديل إلى شفتيه ووجنتيه ، وإذا زجاجات الخمر التى ملأت الصور تنتقل إلى رأسه فاذا هو فى نشوة .. أن كل ورقة تعيده إلى الحياة ، وكل زجاجة تعيده إلى الماضى ..

هذه الرسائل الصفراء كأنها أوراق الخريف فى حياته تساقطت كما تتساقط الشعرات البيضاء من رأس العجوز .. لقد تعرت من الورق ومن الشعر ، فهو اليوم أصلع الحياة !

وأسأله : كيف حالك ؟

فيقول : اليوم أحسن .. تسلمت رسالة من بيروت .. إنها من « ماريانا » التى كانت فى الموسم الماضى ترقص هنا فى القاهرة .. أنها تذكرنا بذلك اليوم الذى شربت فيه أو شربنا فيه معا .. فدار العالم كله من حولى ، وأغمى على المقاعد فراحت

تمايل وتهوى فوق رأسي . . وتقلت بعدها إلى الفندق . . وأفقت على طاقة الورد وبطاقة منها قبل سفرها كلها تمنيات . . كلها تمنيات طيبة . . آه أين أيامها ؟

وهذه الرسالة وغيرها كثير يتساقط عليه من باريس وروما ولندن ومونت كارلو . . كأنها ألغام تظل عائمة دون أن يراها فاذا رآها اصطدم بها ، فتنفجر عيناه بالدموع ، وقلبه بالنار ، وتسبح الدنيا حوله فى دخان كثيف يحجبه عن أصدقائه أياما طويلة !

– وهذه . . وهذه أنظر إليها !

– ما لها هذه ؟

وتمتد يدى إلى صورة فتاة فى العشرين من عمرها شعرها أسود طويل ، ووجهها شاحب فى غير مرض ؛ وإبتسامتها معلقة على وجهها . . تشد حاجبيها وترفع شفتيها . . ويضع هو أصبعه . . على صدر شامخ الثديين . . ما لها هذه ؟ لا أعرف إلا أنها جميلة . . ولكننى لم أفهم شيئا من وجهها الحزين ابدا . .

ويمسك الصورة التى مسحت معالمها أصابعه ويقول : أنها مسكينة أننى أخشى عليها من الذئاب . . أنها ليست حملا وديعا كما تتصور ، ولكن كثيرا ما ثارت وكثيرا ما قامت بدور

الذئاب وكنت أنا الحمل الضعيف . . آه . . أكلتني وشربتني ونزعت جلدى وكادت تنزع روحى من جسـدى ، أو تنزع جسدى من روحى التى كانت تقاومها . . ولكننى كنت دائما طعاما مرا ، لا تسيغة كثيرا ، فكانت تردنى إلى الأرض . . إلى الحياة . . ولا أخفى عليك أنى كنت أجد متعه فى هذه الرياضة . . أنها رياضة . . إلا تظن ذلك . .

ــ ــ . .

ــ أنها ثورة وادعة ، أو وداعة ثائرة . . مسكينة . . ماتت أمها وهى فى السابعة عشرة من عمرها . . فى السابعة عشرة تستطيع أن نتخيل أى شباب وأية حيوية ساذجة وأى نقاء وصفاء . . ماتت أمها وبكت عليها حتى نفدت دموعها ، كما نفدت أموالى ، فأصبحت تعيش بدموع الآخرين . . هل فهمت ؟ . . أننى أبكى لها . . وكثيرون غيرى يبكون لها . . ماتت أمها . . وأبوها عجوز وأخواتها صغار . . فراحت تدق كل باب ، وكانت تفتح الأبواب بصدرها العالى ، فاذا كل باب يصبح ذراعين . . يصبح ذراعى رجل . . ذراعى ذئب . . هل فهمت . .

ــ . .

ــ لعلك تسألنى لماذا لم أتزوجها . . آه . . لم أتزوجها لأن أحداً

فى هذا البلد ، بل فى الشرق كله لا ينسى الماضى ، لا ينسى الماضى لإنسان . . ولكنى أحبها . لو كنت فى أوربا لتزوجتها . . ولكن هنا ؟ . .

— ولكن أين . .

— أين المال . . قد يكون سؤالك هكذا . . أننى مثل الرجل اليونانى الذى عذبته الآلهة ووضعت أمامه حجرا ضخما على هيئة برميل وأمرته أن يصعد به إلى قمة الجبل فكلما دفعه إلى أعلى ، عاد به الحجر إلى أسفل ، وكلما قارب القمة ، هوى إلى السفح . . أن هوى كلها هكذا . . كبرميل ، ولكن من البارود لا من الحجر ، وأنا أبحث عن شرارة تنسفنى مع البارود . . وحينئذ أصرخ قائلا : يارب احرقنى أنا وهوى معا . . . . لابد أن أرى طبيبا يعالجنى . . أننى كالإنسان البدائى قبل أن يعرف النار . . قبل أن يستخدم النار ويجعلها نورا . . كأن ليله طويلا ، ولكن ليلى أنا أطول . . أطول بكثير . .

* * *

لا جديد فى حياته . . ولا جديد فى حياتنا معه . .

إن كل ما يقوله قد عرفناه : وكل ما لم يقله نستطيع أن نعرفه حتى أصبحنا نجلس صامتين . . فلم يعد هناك شئ نقوله أو يقوله

. . إذا ضحكنا معه . . ذكرناه بماضيه فيبكى ، وإذا أسفنا له ، ذكرناه بماضيه فيبكى . وإذا سكتنا ذكرناه بأيام لهوه ومرحه وسيارته وفتياته وسهراته ، فيبكى . . لم نعد نحن نطيقه وثقلنا عليه ، وثقل علينا . . يضيق بماسح الأحذية إذا أتجه إلينا ، ولم يتجه إليه ، وبالجرسونات إذا حيوه عاطفين . .

كل شئ يرمى به إلى ماضيه الذى يحمل معه صوره ورسائله وتوقيعاته ووصولاته ودموعه وآهاته . . ولكننا جزء من ماضية نحوم حوله ، ويحوم حولنا ، كما يحوم القاتل حول جريمته . .

* * *

وفى يوم كان يسير عابرا الطريق جاءت سيارة لصديق قد أراد مداعبته فصدمه وألقى به إلى الأرض . . إلى المستشفى عشرين يوما . . أنفتح رأسه على عالم جديد . . ، وكأنما حين سقط على الأرض ، سقط على الحجر الذى يحمله فأصبح خفيفا حرا من ماضيه . . أو كأن هذه الصدمة الهائلة زلزال أسقط البيوت والجسور وأغرق الناس فى حياته !

فى المستشفى أحس أنه وحده ، وأن العالم كله بعيد عنه . . وأنه أخذ يرى الناس وهو بعيد عنهم .

والإنسان لا يرى الناس بوضوح إلا إذا بعد عنهم وأحس أن

الناس كلهم مشغلون عنه لايه ، ويعملون لأنفسهم ، لا له . . أين أصدقاؤه وصديقاته وأهله . . وراح العالم يتضاءل عنده وينزل عند قدميه فاذا الكرة الأرضية كرة صغيرة وإذا هو يركلها . .

ويتقلب فى فراشه بين ماضيه وحاضره . . ويكتشف أنه يعرف أشياء كثيرة يمكن أن يستفيد منها . . أنه يعرف أربع لغات . . وأنه يجيد الكتابة على الآلة الكاتبة . . وأنه يعرف مئات الكبراء والعظماء والسماسرة واللصوص وشاربى الدماء ، وعشرات من قطع النشاف الشقروات اللائى يمتصصن الدماء والذهب والخمر . . أن هذا المستشفى كان بمثابة « المحجر الدولى » الذى أعطى فيه حقنا ضد اليأس والثقة بالناس والإسراف وضد الماضى وكل أمراضه المعدية . .

ويزوره صاحب السيارة ويعلم بما أصاب ذراعه اليسرى ويقدم له بضع مئات من الجنيهات ليبدأ بها عملا جديدا بعيدا عن كل ما يحزنه فى أن يضعها فى جيبه إلى جوار قلبه . . أنها رصيد آخر إلى جانب رصيده المعنوى الذى أكتشفه أثناء مرضه وجده تحت الغطاء . . وجده فى نفسه ، فى جسمه ، فى يديه ، فى عينيه ، فى شاربه الدقيق ، فى شعره الذى وصفته النساء بأنه فاتن . . ويسحب الغطاء عن جسده ، ويسحب الماضى عن رأسه ، ويقف على قدميه ، بعد أن عاش حياته كلها يقف على أيدى

الآخرين ، وسيقان الأخريات . . ويسير إلى أحد شوارع القاهرة . . بلا موسيقى وبلا نساء ولا خمر ولاجرسونات ويفتح محلا للسجائر . . ولكن أين ؟ فى أحد الكباريهات .

أنه هو الآخر يحوم حول مكان الجريمة وتحوم حوله صور الفتيات معلقات فى اطارات خمرية وذهبية . . !

وأسأله : كيف حالك يا جورج ؟

فيقول : الحمد لله . . لقد نسيت الماضى ، طلقته ثلاثا ، عرفت أن المرأة كذب ، وأن الرجل أكثر كذبا من المرأة . . لقد وضعت بينى وبين الماضى حواجز شديدة ، حواجز قوية !

ولكنها حواجز من الزجاج !

الفصل الأول والأخير

(فيلا جميلة بمصر الجديدة . أمام الباب عربة مرسيدس سوداء . وفى داخلها كلب ضخم يجلس فى المؤخرة . . وفى المقعد الأمامى سائق أنيق يقرأ فى صحيفة . باب الفيلا ينفتح . الخادمة تتقدمنى إلى سلم ومن السلم إلى قاعة ضخمة ومنها إلى غرفة دافئة . بها لوحات ثمينة . وتشير إلى أن أجلس حتى تحضر الهانم . . وتجئ الهانم ويدور كلام طويل هذا بعضه :)

هى : يعنى إيه رأيك ؟

أنا : باختصار . وأنا مستعد أن أرد على أى سؤال يخطر على بالك .

هى : أنت تعرفه لهذه الدرجة ؟

أنا : صداقة العمر كله . لقد عشنا فى بلد واحد . وكنا زميلين فى المدرسة وفى الجامعة . وما نزال حتى الآن صديقين . . وكما قلت لحضرتك . .

هى : بلاش حضرتك دى . .

أنا : وزى ما قلت أنه لا يخفى عنى شيئا . إلى أن كانت هذه الرغبة . فأنا أيدتها . . ولكن بعد تردد .

هى : طبعا أنا يعجبنى الرجل الذى يتردد قبل أن يتخذ قراراً هاما كالزواج . لأن هذا التردد معناه التفكير والتدبير ومعناه أنه رجل مسئول . وأن المسئولية صعبة . . ولكن . .

أنا : أيوه . . أنا منتظر و « لكن » هذه . . وعلى كل حال ليست هذه هى الأولى . .

هى : كلام الناس . .

أنا : طبعا لابد أن يقول الناس شيئا . . هذه الأفواه لا يمكن أن تتحرك إذا كانت مليئة بالطعام فقط . . لابد أن تمتلئ بلحوم الآخرين . لابد أن تمضغهم . . أن تنهشهم . . وبعد أن تمضغهم ترميهم . . لابد أن يتكلم الناس . . أنا أقول لك . . لابد أن يتكلم الناس على الناس . ليه ؟ . لأن هذا يرضى غرورهم . . لأنى عندما أقول أن فلانا هذا حرامى . . وأنه بخيل وأنه كذاب وأنه يخدع الفتيات . . وأنه وأنه . . معناه أننى لست كذلك . . فأى شتيمة لأى إنسان آخر هى تحية لى أنا . . والناس تتعب من إقامة حفلات التكريم لنفسها . . وحفلات التكريم هذه لابد فيها من ذبائح وضحايا . . وهؤلاء الضحايا هم الناس الآخرون . . وأؤكد

لك أن صاحبي هذا أحد هؤلاء الملايين الذين يذبحون ويقتلون بألسنة الناس وإنيابهم كل يوم . .

هي : من غير شك . ولكن مفيش دخان من غير نار . .

أنا : ولكن فيه نار ليس لها دخان . . هناك أشياء كثيرة يفعلها الناس ولا يظهر لها أى دخان . . وليس كل المسجونين هم كل اللصوص . . بل هناك كثيرون لم ترهم العدالة ولم تعرفهم . . وهناك نيران صغيرة جدا لها دخان كبير جدا . . والدخان الذى يتصاعد من كوم قش أكبر جدا من الذى يتصاعد من إنفجار قنبلة .

هي : يعنى عاوز تقول إيه . .

أنا : عاوز أقول . . أنه كويس جدا . . وأنه سيكون أحسن زوج لابنتك . . وأنا أعرفه جيدا . . وهى أيضا تعرفه فقد كنا نحن الثلاثة زملاء فى كلية واحدة وفى قسم واحد . . وأن كل ما فعله قبل الآن . . يفعله كل الشبان . . أنه رجل له تجارب ، له مواقف . . أنه يعرف قيمة ما يقول وما يفعل . أنه قد اختار أبنتك لأنها أقرب إليه وأحسن من كل الأخريات فى حياته . ولو كان هذا الشاب من غير تجارب لوقفت إلى جوارك ورفضته . . فأنا أكره الرجل « الخام » الذى يتقدم للزواج بلا تجربة ، بلا فهم

سليم لنفسه ولزوجة المستقبل . . أكره هذا الطفل الذى يريد أن يكون زوجا وأبا لطفل . .

هى: (وهى تضحك) ولكن أنا مندهشة .. فقد كنت أتصور أن صديقك هذا هو الذى يجئ بنفسه . . لا أن يبعثك أنت . . فهو أكثر جرأة منك . .

أنا : كان أفضل ولكنه لا يستطيع أن يتحدث عن نفسه ولا أن يدافع عن نفسه . . ولا أن يواجه حماة المستقبل ويتشاجر معها من الآن . . على كل حال . . بقى أمر هام هو موافقة العروس . . ما رأيها . . أنا أعرف مقدما رأيها . . فمنذ أيام الجامعة كانت تستريح إلى كلامى وإلى . .

هى : وإلى ملابسه . . أنها كانت تفتح حقيبتها وتخرج الإبرة والخيط لتضع الزراير التى تساقطت من قميصه . .

أنا : أيوه . . أنا فاكر حاجة زى دى كده . . يظهر أنها كانت تفعل ذلك لكثيرين . . لقد كنت أيضا أحد الذين تساقطت أزرارهم . . وأنا أقوم الآن .

هى : (بلهجة جادة جدا) على فين ؟ .

أنا : مشغول والله . . ولكن غدا سأحضر أنا وهو فى العصر . . إذا وافقتم . . وتكون هى معنا . . ويبقى الكلام بصراحة وبوضوح . .

هى : أحنا تكلمنا .

أنا : صحيح . . لكن بقى هو . .

هى : هو مين ؟

أنا : مين ؟ صاحبى . .

هى : صاحبك مين ؟

أنا : صاحبى مين أزاى ؟ زميل المدرسة والجامعة وزميل أبنتك أيضا . .

هى : مش معقول .

أنا : أيه هوه ؟

هى : طول الوقت أنا فاكراك بتتكلم عن نفسك .

أنا : عن نفسى ! !

(وظهرت البنت فجأة ووقفت إلى جوار الأم ووجهها غاضب ثائر وفى نفس واحد) . .

أسطورة هريانا

.. أسطورة همس بها الأجداد للأبناء وغناها الأبناء للأحفاد .. ولكنها جديدة رائعة اللمعان ، كأنما خلقت « هنا والآن » أو خرجت لتوها من يد الآلهة .. تبددت اصداؤها وضاعت بين قمم الألب البافارية . وهوت بها يد سحرية إلى بطون الوديان . وغيبتها فى ضمائر الأكواخ . وأدنتها من لهيب المواقد . ونفثتها حارة دافقة على شفاه الفاتنات الحسان ، وأذابتها دامعة على وجنات بريئة ..

أنها أسطورة الظلال والاصداء التى عبدها فيلسوف تائه شارد هائم ، اتسع رأسه لكل شئ .. وجمع العالم كله فى نفسه .. فلا هو بلغ حد الشبع ، ولا هو استراح .

كان الفيلسوف الحائر لايكاد يسمع بشئ جديد ، حتى يحزم متاعه ، وهو قليل ويشحذ ساقيه ويرحل .. تاركا ثروته الهائلة من ورق الكتب لا من ورق البنكنوت .. وتلك عادته دائما ، كأنما خلق حارسا لهذه الأرض ، عليه أن يرقب النازح الغريب .

والقاصى والدانى . ومن مات ومن ولد . ومن يزفر الدماء من تباريح العذاب . ومن تجلجل ضحكاته الافلاك . .

. . وفى يوم . علم أن ساحرة تسكن كهفا عند ذيل إحدى الصخور التى تشرف على جدول دائم الإنسياب ، له قطرات تسحر الحصباء على شاطئيه فتنام حتى تكفنها قطرات الندى النقية . .

وسمع أن صوتها كأنه النهر المقدس تتطهر فيه النفوس . . أذن لابد أن يراها أو يسمعها . .

* * *

وعند باب الكوخ وقف الفيلسوف يحمل رأسا كبيرا وقلبا طافحا بالطبول تضرب الدم عنيفا إلى كل خلاياه . . وبيده المقشعرة طرق الباب . .

وأعاد الطرق . . وسمع صوتا . . وشيئا نحيلا ناعما رقيقا . ولكنه لم يتبين ماذا يقول هذا الصوت . .

وتركزت قواه كلها فى أذنيه ويديه ؛ فعاود الطرق من جديد . . لقد سمع الآن بوضوح . . قال لها :

— أنت مريانا ؟

الأم والبنت : أيوه عن نفسك ! !

أنا : أنا بأتكلم عنه هو . .

الأم والبنت : عنه . . طيب قوم يلّى من هنا !

(وقمت من هناك . . وفجأة ظهر صديقى على الباب . . وأشرت إليه أن يجلس وانطلقت أبحث عن الباب الخارجى . .)

— أنا هي .

— مـــا أجمل صوتك .

— شكـــرا .

— هذا شيء لا أستحق عليه الشكر ، أنني أقول الحق . . ولم أعرف بعد أن الإنسان يشكر على قول الحق ! . . حتى الملائكة قد سرى إليها هذا الفساد . .

— . . .

— كأنك لا تتكلمين . . وأنما ترتلين أو تغنين .

— هل أعجبك صوتى ؟

— أعجبنى ! ، ماذا تقولين ؟ أننى لم أسمع مثل هذا الصوت قط . . من علمك أن تتحدثى هكذا ؟ أية نغمات هذه . . أية كلمات تختارينها . .

— لم يعلمنى أحد . .

— صدقت . أن مثلك لا يتعلم . بل يولد هكذا . هذا الجمال منحه . . هبه . . يقدمها الآلهة لبعض مخلوقاتهم . . أن صوتك هذا يحرك مواجعى . . يهز نفسى يحيلها إلى آهات . . لا أكاد أسمعه حتى يخيل إلى أننى أريد أن أقول شيئا . . أن أفعل شيئا . . أن أغنى . . أن أنظم شعرا . . أن أكتب . .

ـــ أنك واهم . . أو شاعر .

ـــ بل أنت واهمة . . أنني أتحدث عن أحساسى أنا : وأنا أعرفه أكثر منك . . أن صوتك كالناى الحزين . .

ـــ أنت واهم أو شاعر . . وأغلب ظني أنك شاعر . . من الذى بعث بك إلى كوخى ؟ أنه كلام الناس . . أنها شائعات الواهمين من الشعراء أمثالك . .

ـــ أنك قاسية . . بالغة القسوة .

ـــ بل رفيقة بك . وإلا كيف تحدثت إليك . .

ـــ أنك تتحدثين إلى كل الناس .

ـــ وماذا فى ذلك ؟

ـــ لا شئ طبعا . وإنما أريد أن أقول أننى كغيرى من الناس . . فلم أنفرد بلطف لم تمنحيه سواى . .

* * *

وينتهى الحوار بين الشاعر الفيلسوف وبين مريانا ، كل يوم على هذه الصورة . . يقف بالباب ، وتتحدث هى من الداخل دون أن تفتح باب كوخها ، وكأنها ضمير يتحدث ، أو كأنها ملاك يصلى . .

أنه يقف ببابها كما تقف النار أمام جبل من الجليد . . ولكن الأسطورة تقول أن هذا الجبل أخذ يذوب ويذوب ، والنار تعلو وتعلو . . وكأنه جبل من الكحول الجامد لا من الماء المتجمد . . فاذا مريانا تنساب وتنساب وتدنو من الباب . . وقد حطمت غطاءها الخزفى . . وإذا بها إنسان آخر . . حى نابض . .

إن الشاعر لم يعد يسمع صوتها فحسب ، بل أخذ يحسه أنفاسا دافئة واهنة . . ولكنها ما تزال وراء بابها . .

وفى يوم جاء إليها الشاعر . وقد نفذ صبره . وقال صارخا : أى ساحرتى ماريانا . . أريد أن أراك . . أريد أن أعرف المعبد الرائع الذى ينبعث منه هذا الترتيل الفاتن . .

— لن ترانى . . فلا داعى لذلك .

— بل هنالك ألف داع . . أريد أن أرى بعد أن سمعت . . أريد أن أرضى عينى بعد أن شوقتها أذنى . .

— لا أريد أن أصدمك . .

— لن أصدم أبدا . . أن كنت جميلة جمالا خارقا ، فقد رأيت جميلات كثيرات فى يقظتى وفى نومى وفى وهمى . . وإن كنت دميمة دمامة منفرة ، فقد وقعت عينى على كثيرات قاتلات . .

ـ فكر فى الأمر أيها الشاعر الواهم . .

ـ فكرت طويلا . .

ـ إذن لحظة واحدة تراني فيها . .

ـ تكفيني لحظة . . بل أقل من لحظة . .

ـ وبعدها ؟

ـ أموت أو اعيش سيان . .

ـ أذن . . .

ودنت من الباب وفتحته . . لحظة واحدة ثم اقفلته . .

* * *

ولكن الشاعر خر ميتا ، كقطعة من الجليد الذى كانت تعيش فيه مريانا . . ولا أحد يعرف لماذا مات هذا الشاعر . .

هل كانت مريانا ساحرة ، فقتلته بجمالها ؟

هل كانت قبيحة دميمة بشعة ، فقتلته بدمامتها ؟

لقد مات الشاعر ، وسره معه . .

* * *

واليوم ، فى الجبال الباقارية يقوم المعجبون بتمثيل هذه الأسطورة

دائما . . فتختبئ العروس وراء صخرة ، ويناديها زوجها قائلا : مريانا . مريانا ساحرتى . . فترد عليه : أى شاعرى الواهم . .

– أريد أن أراك . .

– ستراك .

وتظهر مريانا ليعانقها ، ولتهبه الحياة ، والموت من إجلها . .

السعادة بإرادة الله !!

أثنان تحت شمسية على البلاج . . . ووجودهما تحت الشمسية لا علاقة له مطلقا بما سيدور بينهما من كلام . . . فمن الممكن أن يدور بينهما هذا الكلام تحت أى شئ . . . أو فوق أى شئ صيفا وشتاء ... ولكن الغريب فيهما أنهما مغموران فى الرمال تماما كمرضى الروماتيزم . . . كأنهما ممثلان فى إحدى المسرحيات اللامعقولة فلا يظهر من كل منهما سوى رأسه . . . والدائرة التى التى تحيط برأس السيدة قد أتسعت مما يدل على أنها تحرك رأسها كثيرا . . . أما هو . . . فالرمال حول رأسه لا تهتز . . . وحتى الجزء الظاهر من رأسه لا يدل على أنه حى وإنما هو مطمور أو مدفون أو دفن أو يريد أن يكون دفينا . . . فوجهه فى لون الرمال أصفر وفيه بقع بنية اللون . . . وجهه قطعة من الرمل الجامد . . . !!!

لا أحد يعرف أو لا يهم أن يعرف لماذا أختار الأثنان هذا الوضع . . . على كل حال لا أحد يعنى بأحد إلى هذه الدرجة . . . فالناس يلقون بأنفسهم فى الماء ولا تظهر إلا رؤوسهم أو أرجلهم ... أنها مباراة هائلة فى الدفن . . .

كل واحد يدفن نفسه فى المكان وبالطريقة التى تعجبه . . فى الماء . . فى الرمال . . فى الكوتشينه . . فى الشرب . . فى النوم . . فى صحيفة . . فى كتاب . . فى تريكو . .

فالطريقة الوحيدة التى يستمتع بها الإنسان أكثر ، هى أن يدفن نفسه أعمق . فلكى نعيش يجب أن ندفن أنفسنا من حين إلى حين !

ولكن يبدو أن هذين الأثنين قررا أن يدفنا بصورة فيها حياة . . فقد اندفن كل واحد ، منهما واقفا كأنه يحمل نفسه على رجليه إلى العالم الآخر . . أو كأنه انتقل إلى العالم الآخر جزءاً جزءاً . . أو كان الملكين يحاسبونه من تحت إلى فوق .

ولكن الذى يقترب من الأثنين يجد أنهما لا علاقة لهما بكل ما دار فى رأسى . . فقد وضع كل واحد منهما قبعة فوق رأسه . . وكادت الرمال أن تدخل فى أنفه . . وبين الحين والحين تمتد يد تمسك البرنيطة التى كاد الهواء يخطفها ويلقى بها بين أقدام الأطفال

وبذلك يتكشف رأس أصلع . . هو رأس الرجل طبعا . . ورأس آخر منكوش هو رأس السيدة . . وفى وسط شعرها دبوس لا لكى يمسك الشعر ، وإنما لكى تمتد أصابع السيدة وتهرش بها . . ولسبب ما تهرش رأسها وهى لا تستطيع أن تهرش بأظافرها الطويلة ، حتى لا تنكسر أظافرها أو حتى لا تجرح فروة الرأس . . وبلا مقدمات تلتفت السيدة إلى الرجل المدفون فى الرمل وتتنفس بصعوبة وتقول : تفتكر أنك فى إستطاعتك أن تسعدنى ؟ »

تفتكر أنت ما الذى يمكن أن يقوله رجل غرقان فى الطين . . حواليه وتحته وفوقه . . أى سعادة تقصد هذه السيدة . . ولكن دهشة الرجل لا تقنع السيدة بالعدول عن السؤال ، ولا بالعدول عن إنتظار الجواب ولا باليأس من الكلام فتقول بصوت مرتفع لتغطى على صوت بائع الأيس كريم وتحول بين الرجل وبين ابداء رغبته فى كوب من الماء البارد أو فى أن تأخذ بيده وتخرجه من الطين إلى الرمل ، ومن الظلمات إلى النور ومن هذا السجن ومن هذه المناقشة التى يبدو أنها تطول ، وأنها هى وحدها التى ستسأل وهى وحدها التى ستجيب . ومن الغريب أنها تصر دائما على أن يظل متابعا لاسئلتها وأحاديثها وليس من الضرورى أن يفتح فمه . . وإنما يكفى أن يهز رأسه من حين إلى حين ، ليدل على أنه لم ينم بعد أن قالت وهى تتلوى فى الرمل كأنها مسمار الووظ : أنا أريد أن أكون سعيدة . . وأنا أعتقد أن السعادة شئ بسيط جدا . . يكفى أن نجلس

معا . . أن نتكلم معا . . أن نقرأ معا . . أى حاجة . . أنها كنسمة الهواء . . أن العواصف لا تسعد الناس : . وإنما القليل من الهواء هو الذى ينعش الناس . . وحياتنا مثل الشمعة : القليل من الهواء يوقدها ولكن الرياح تطفئها . . وحياتنا فى الدنيا هى شمعة . الله ؟ !!! أنت نمت وإلا أيه ؟

ويرد عليها : أفرضى أنى نمت . . أليس النوم نعمة . . أليس النوم راحة والسعادة راحة . . فأنا أذن أمر بلحظة سعادة . . هل يضايقك أننى أختلس منك لحظة سعادة . .

هى : ولماذا لا تحط عليك السعادة إلا عندما أتكلم ؟

هو : لو كنت أعرف مواعيد السعادة لضبطتها على الوقت الذى يناسبك . .

هى : أنت تنام عندما تريد . . وأنت لا تريد النوم إلا عندما أتكلم وأسألك . .

هو : هل يضايقك أنى أنام ؟

هى : لو كنت نائما حقا . لما تضايقت . ولكنك كنت تتظاهر بالنوم وأنا عارفاك !!!

هو : كيف تظاهرت بالنوم ؟ هناك طريقة للنوم غير أن يغمض الإنسان عينيه ؟

هى : وإنما أنت كنت تتابع كلامى . . أنا لاحظت هذا . . لاحظت أنك كنت تهز رأسك وأنت مغمض العينين . . فأنت أذن لم تكن نائما . . وإنما تصطنع النوم ؟

هو : أننى أهز رأسى بحكم العادة فأنت التى تتكلمين عادة وأنا المفروض أن أسمع وأنا أتابع ما يعجبنى ومالا يعجبنى وأنا لا أعرف بالضبط أن كنت نائما وأهز رأسى أو أحلم بأنك ما تزالين تتكلمين . . أم اننى كنت يقظان أتابع كلامك أو أننى فى المرحلة التى بين اليقظة والنوم . .

هى : طيب ما آخر شئ قلته لك ؟

هو : آخر شئ هو حكاية الخرشوف المسلوق . .

هى : أنا جبت سيرة الخرشوف . . الخرشوف ده شئ يهمك أنت . . أنت راجل تحلم بالخرشوف وتنام بالخرشوف لكن أنا بأكلمك عن السعادة . . الموضوع اللى أنت دايما تقول أنه بيجيب لك السعادة . . حاجة تانية غير أكل العيانين . . أنت راجل مريض . .

هو : طيب ما هى السعادة .

هي : مرض . مرضك أنت !

هو : طيب بذمتك مش النوم أحسن من الكلام اللى أنت بتقوليه ده . . أنا دلوقت أكتشفت أنني فعلا لما بأسمع كلامك بانام . . لأن عقلى لا يستطيع أن يسمع كلام زى ده . . لابد أن عقلى يغطينى بلحاف من النوم حتى لا أصاب بالبرد . .

هي : عاوز تقول أننى باردة . .

هو : عاوز أردد كلامك بس . .

هي : وأيه الفرق ؟

هو : طبعا فيه فرق . . هناك وابور يعمل ثلج . . الوابور يدور بالنار وبالكهرباء . . ومن النار ده تصنع ألواح الثلج . . يعنى الوابور الوالع ده هو اللى يطلع منه ثلج . . فالوابور لا يدور بالثلج . . يعنى الوابور مش بارد . . ولكن كلامه بارد . .

هي : شاطر يابتاع الخرشوف . .

هو : أنت فاكرة أن الغيان بس هو اللى بيأكل الخرشوف . . الإنسان السعيد محتاج إلى خرشوف ليه ؟ لأن السعادة مرض . . مش فيه ناس عندهم « عمى ألوان » . . يعنى عينهم تشوف كل الدنيا بلون واحد . . هو اللون الأصفر . . أو الأزرق . .

السعادة كمان هي عمى ألوان : مرض . لأن الإنسان السعيد يشوف الدنيا بلون واحد .. بلون الورد .. وعنده عمى فى أذنيه أيضا .. فهو لا يسمع إلا الضحك وإلا الكلام الحلو . . وعنده عمى فى تفكيرة لأنه يحب الجانب السهل من كل حاجة . . يعنى مش معقول يكون فيه مرض أكبر ولا أضخم من مرض السعادة ؟ وإذا كان مريض المعدة أو المصارين بياكل خرشوف ، شوف بقى مريض العقل والعين والأذن والأنف ، وبقية الأعضاء الأخرى ياكل ليه ؟ . .

هي : أسمع بقى ما تقعدش تلف بى . .

هو : أنا طايل أقعد . . ما أنا واقف على حيلى . . أنا نايم بالطول ياريت تشديني وتطلعيني من اللى أنا فيه .. وأنا أقعد وأسمع لك وأقول لك كلام كويس . . مدى أيدك وطلعيني من الطين اللى فوقى واللى تحتى طلعيني من التابوت . .

هي : خليك كده أحسن . . أنا قادره عليك وأنت غرقان فى الرمل لما أقدر عليك وأنت بره .. يا راجل قل لى حتمعل أيه .. لما نيجى فى يوم ونتخانق مع بعض . . مش معقول طبعا أنك حتضربنى قلمين . . أنا باشوف أن الراجل اللى بيضرب ده راجل بدائى . . ده راجل عاجز عن اقناع زوجته بالكلام فى حين أنني عندى استعداد أنى أسمع كلامك . . أى كلام تقوله بشوفه

أحسن حاجة فى الدنيا . . وبعد كده تيجى تضربنى قلمين . . بعد كل اللى أنا عملته لك . . شوف أنا عملت أيه مع أمى علشانك . . شوف أنا استحملتك أزاى . . شوف أنا تعذبت أزاى . . وبعدين تيجى تضربنى قلمين . . وكمان أيدك اللى فيها القلم . . مش يجوز أن القلم كان ييجى فى عينى . . كانت مصيبة . . وياشماتة الناس . . يا شماتةأهلى كلهم . . وتبقى عين وصابت عينى . . مش تخلى لى حاجة . . لا . . لازم أبقى عيانه وكمان عينى تضربها بالقلم . . علشان ما يبقاش حيلتى حاجة زى الناس أبدا . . وأنت ولا همك . . طبعا تقوم تاكل . . وبعدين تنام . . وتقوم كأن ما فيش حاجة فى الدنيا حصلت وأفضل أضرب دماغى فى الحيط وأنت ولا هنا . . طب وعلشان أيه العذاب ده كله . . ما بلاش . .

هو : بلاش . . .

هى : أنت عارف أنا هقول أيه . ؟

هو : عارف . .

هى : وبسهولة كده . . يعنى أنت مش قادر تستحملنى أمال أنا أستحملتك أزاى . . وكمان بتقولها . . وهو أنا اللى ضربتك على أيدك . . مش أنت اللى عايز نتجوز وبعدين دلوقت تقول ما بلاش . . طبعا دلوقت تقول بلاش . . بعد أيه ؟ . .

هو : أقدر أنام شوية . .

هي : هو ده الكلام اللى بيسعدك . .

هو : بيسعدك أنت . واللى يسعدك يسعدنى . .

هي : ياه . . ومن أمتى كده ؟

هو : طول عمرى . .

هي : عينك فارغة . .

هو : ليه يعنى ؟ . .

هي : علشان أنت بتقولها وعينك من البنت القصيرة أم شعر أكرت اللى رجليها فيها بقع اللى ماشية مع صاحبها العجوز الأخنف ده . .

هو : فين هى دى . . فين كل الناس اللى بتقولى عليهم دول . . وأنا قادر أشوف حاجة . . أنا فى الفرن . . فى النار . . النار بتلسعنى . . هو معقول واحد يبقى فى النار ويفكر . . عرفت يعنى أيه جهنم . . جهنم معناها أن الواحد يبقى عنده عقل ومش عارف يفكر . .

هي : هوه الجواز يعنى جهنم . .

هو : هوه أنا جبت سيرة الجواز . .

هى : مش بتقول جهنم ؟ . .

هو : وهيه جهنم معناها الجواز عندك ؟

هى : أنت دايما بتقول كده . .

هو : أنا بأقول أن الجنة مفيش فيها جواز . . آدم ما تجوزش حواء إلا لما نزل الأرض . . وجهنم كمان مفيش فيها جواز . .

هى : لا أنت ما بتقولش كده . . أنت بتقول أن جهنم مش ممكن يكون فيها جواز . . لأن الجواز هو جهنم . . والجواز فى جهنم معناه : جهنم فى داخل جهنم . . وربنا ما يرضاش بالظلم ده . .

هو : أنا أمتى قلت الكلام ده ؟

هى : زمان . .

هو : وأفرضى أنني أنا قلت ده زمان وبعدين غيرت رأيى . . مش الواحد بيغير رأيه حسب الظروف . .

هى : لا أنت حتقول لى . . أنت كل يوم لك رأى . . يوم أقول لك بتحبنى تقول : أيوه . . يوم تقول : يارتنى ماحبيتك . . ويوم تقول لى : أن الحب والكراهية الأثنين زى بعض . . وزى ما فيه ناس بتموت نفسها بسبب الحب ، فيه ناس بتموت غيرها بسبب الحب . . والنتيجة واحدة . . ومرة تقول لى :

أنا قرفت من الحب . . وتقول أن الحب ده عاوز واحد فاضى . . والمشغول ما يقدرش يحب . . واللى يحب ما يقدرش ينشغل بحاجة تانية . . مش ده كلامك بعضمة لسانك . .

هو : فكرتينى . . والنبى عضمى وجعنى من الرمل . أنت يا أخ ياللى هناك . . أنت يا بتاع التين ! . تعالى خد أيدى . . أيوه لازم واحد تانى ياخد أيدى . .

هى : هنرجع للنغمة القديمة . . واحد تانى ياخد أيدك . . واحد غيرى .. أنا ما أقدرش أعمل لك حاجة أبدا . .أنا عارفه . . وده اللى بيخلينى دايما أسألك . . تفتكر أنا أقدر أسعدك ؟ . .

هو : ممكن . .

هى : ممكن أزاى . . إذا كنت أنت مش عاوز تبقى سعيد . . أنت معذب نفسك . .

هو : أيوه أنا معذب نفسى . .

هى : معذب نفسك أزاى ؟

هو : معذب نفسى زى أنت ما بتقولى . .

هى : يعنى أيه ؟

هو : يعنى زى أنت ما بتقولى . . وإلا أنت بتقولى كلام مش فاهماه . .

هى : عاوزه أعرف . . يجوز أنا فاهمه حاجة . . وأنت فاهم حاجة تانية . .

هو : نفس الحاجة اللى أنت فاهماها . .

هى : كده يبقى بلاش أحسن . .

هو : بلاش . .

هى : أنت خاسس عليك أيه . . المصيبة فوق دماغى أنا . . أنت تطلع زى الشعرة من العجين . . لكن أنا اللى ضحيت . . أنا اللى أتعذبت . . وأنت حاخدك على أيه يا حسرة . . صاحبتى بتقول عليك . . ولا بلاش . . تقول اللى تقوله هيه ولا غيرها .. وغيرها . . أهى قسمتى والسلام . .

هو : وليه قسمتك . . ما بلاش القسمة دى . .

هى : أعمل أيه قسمتى . .

هو : مش قسمتك للدرجة دى . .

هى : قصدك أيه يعنى ؟ . .

هو : قصدى أنها قسمتى أنا كمان . .

هى : ما لها قسمتك بقى . . مش عاجبك بلاش . .

هو : شوفى أنت كم مرة قلت بلاش يمكن عشر مرات . . تفتكرى إذا كانت دى رغبتك موش أحسن لى . . وأحسن لك .

هى : عاوز تقول أيه ؟

هو : عاوز أقول اللى أنت عاوزه تقوليه . .

هى : بلاش ..

هو : وهو كذلك . . بلاش بس شدى أيدى وطلعينى من الرمل ذه . .

هى : واطلعك ليه أنا . . واحدة تانية بقى . .

هو : خلاص . . قوام كده . .

هى : إذا كان فى الهباب اللى أنت فيه وبتقول كده . . أمال لما تطلع بره وتنزل تعوم شوية . . وترجع تاخد دش وتشم شوية هوا حتقول أيه . .

هو : هو أنت بتكلمينى كل الكلام ده علشانا أنا محبوس . . عاشان أنا غرقان . . أنت خايفة تكلمينى وأنا قاعد فوق الرمل.. والله شاطرة .. ناصحة أنت .. لكن مش ده اللى ينفع ..

هى : أسمع . . أنت واخد الحكاية جد ليه . . أحنا مش أتفقنا أننا لما نلاقى نفسنا نتكلم بالشكل اللى يقرف ده نغير

موضوع الكلام .. مش كده مش ده أهم بند فى الاتفاق اللى بينا .

هو : أيوه صحيح ..

هى : طيب أنت عاوز تكمل الكلام باللهجة دى ؟

هو : لا ...

هى : طيب يا أخى هات أيدك .. وياللا نغير الموضوع الأسود ده .. مش المفروض أننا لازم نعيش ومادام لازم نعيش أيه المانع أن أحنا نعيش سعداء ..

هو : سعداء أزاى ؟

هى : كده ...

هو : كده أزاى ..

هى : تغير .. نغير موضوع الكلام .. نغير المكان ده . نغير الناس .. يا نتحرك أحنا .. يا نخلى اللى حوالينا يتحركوا .. هيه حياة ولا أكثر .. حياة واحدة لازم نعيشها كويس .. على قد ما نقدر .. أنا شايفة أن الناس عاملين زى الستات مربوطين قوى .. الست رابطة شعرها رابطة رجلها ورابطة ذراعها كلها مربوطة علشان كده تلاقى أى واحدة ست عصبية .. وأول حاجة لما تبقى لو حدها .. أنها ترمى كل الأربطة دى وتشعر بسعادة

ماالماش أول ولا آخر . . وإنما أحنا رابطين نفسينا كده ليه يا شيخ فكها . . يا شيخ حلها . . وهيه تتفك وهيه تنحل . . وتبقى عال . . أديك أنت ضحكت . . أيه ضحككك ما تسألش نفسك . . أضحك من غير سبب . . عرفت بقى الجواب . .

هو : على أيه . .

هى : على سؤال . .

هو : أى سؤال . .

هى : سؤالى الأولانى . . مش أنا سألتك إذا كنت تقدر تسعدنى . . والجواب أنك طبعا تقدر . . السعادة زى النوم إرادة . . فالذى يدخل فراشه . . وهو يريد النوم ، سينام قطعا . . والذى يدخل سريره وهو راغب فى النوم لن ينام وكذلك السعادة إذا أردتها فانها تغطيك كاللحاف . . وإذا لم تردها ، فانها تهرب منك كالنوم . . وأحنا أردنا السعادة فغيرنا موضوع الكلام . . وضحكت أنت . وضحكت أنا . . أهى دى السعادة . . مفيش أبسط من كده . . الله . . أنت نمت . .

هو : . . .

هى : دلوقت مش حا أزعل منك لو كنت نائم . . أو لو كنت بتتظاهر بالنوم . . يكفى أنك ضحكت . .

وبسرعة مفاجئة . . راح يبرم نفسه فى الرمل . . ثم أمتدت له يد بائع الآيس كريم وجذبه من الرمال . . وأجلسه تحت الشمسية . . ثم نهض واقفا وألقى بنفسه فى البحر . . وراح يسبح . . ثم يعود إلى الشاطئ . . وبسرعة خرج . . وعاد إلى البحر . . كأنه كان مدفونا فى الرمال عشرين عاما من عمره . . فلما خرج من الرمال خرج أصغر سنا . . وأكثر حيوية . . مع أن معجزة لم تقع . . وكل ما حدث هو تغيير بسيط جدا فى الكلام . . تماما كما تضع قطعة حديد على شريط قطار فيقع كل القطار وكل ما فيه من رجال ونساء وأطفال .. قطعة حديد صغيرة تضعها على شريط القطار فيقع ، ونفس قطعة الحديد لو مددت يدك وازحتها من طريق القطار فانك تنقذ المئات من الناس . . فيبقى النائم غارقا فى نومه . . ويبقى الرضيع على صدر أمه . .

مع أن معجزة لم تقع وإنما تغيير بسيط حدث . . فكل التغييرات البسيطة هى التى تؤدى إلى التغيرات الكبيرة فى القطار وفى حياة الناس . . بنفس السهولة التى تضئ بها غرفتك فى الليل ، بمجرد أن تضغط على مفتاح النور . . وبهذه السهولة يمكن تحويل حياة الناس الكئيبة إلى مرحة والوجوه المجمدة إلى وجوه لامعة . . بشرط أن تريد ذلك . . فالسعادة إرادة ، والشقاء إرادة . .

ومن الممكن أن يجلس الإثنان من جديد فوق الرمال وتحت الشمسية أيضا . . ومن الممكن أن يدور نفس الكلام . . ولكن عيب الجلوس فوق الرمال هو أنه يعطي للأثنين حرية تحريك الأيدى . . وحرية الإبتعاد والإقتراب . . وفرصة إثارة إستطلاع الناس فيقتربون منهما ، وهم يتظاهرون بأنهم يفتشون عن كرة ضاعت من طفل صغير . . وربما أدى إستطلاع الناس إلى أن تسكت السيدة . وهناك يفرح الرجل ويشمت فيها . . وربما كان من الأنسب أن يستدرج الأطفال إلى الجلوس معه . . وظهور الأطفال تحت الشمسية يجعل قلب السيدة يلين . . وعندما يلين قلب السيدة فأنها تتحول بسهولة إلى أم لهؤلاء الأطفال ولكل أطفال الدنيا . . وتحس أنها أيضا أم لهذا الرجل . . أو تريد أن تكون أما له أقصد أما لأولاده . .

ولكن الأمومة كالسعادة إرادة أيضا .

إرادة رجل وامرأة وهى إرادة تسعد الاثنين . . .

وسواء جلس الأثنان تحت الرمل أو فوق الرمل وقالا نفس الكلام أو أى كلام آخر غيره . . فالنتيجة من الممكن أن تكون واحدة . وهى أنه لا سعادة بلا تغيير إرادة ولا إرادة بغير الاثنين معا وفى وقت واحد !!!

عندما تحب امرأة لا تنطق

أحترمت الشاب الذى ذهب إلى المحكمة وأعلن للقاضى فى مدينة بالرمو بصقلية أنه يريد أن يترك زوجته وأنه لا يستطيع أن يعيش معها . . ولما سأله القاضى : هل أنت لا تحبها . .

أجاب : بل أحبها والناس كلهم يعرفون . .

سأله القاضى : أليست هى تحبك . .

فأجاب : أنها تحبنى . .

وسأله القاضى : أذن ؟

قال الشاب : هذه هى المشكلة . . أنا أحبها وأحس أنها شئ كبير فى حياتى بل أنها حياتى . . وهى تحبنى ولكنها لا تحس أننى شئ كبير أنها لا تحس بالمجهود الهائل الذى أبذله من أجلها . . أننى كوابور كبير جدا للكهرباء أظل طول الليل والنهار أدور وأدوخ واحترق لكى أشعل لها مصباحا صغيرا . . ويستمتع بضوء المصباح كلبها أو قطتها أو أى أحد أو أى شئ . . أنها لا تشعر بقيمتى

ولا يحبي .. أنني أحبها ولكن لا أستطيع أن أعيش مع إنسان يحتقرني إلى هذه الدرجة .

وقال القاضي : أنها لا تحتقرك ولكنها تحبك على طريقتها وهي حسنة النية في كل ما تفعل .. أنها تنتظرك وتبكي إذا مرضت وعندما مرضت في العام الماضي من الذي ظل نائما عند قدميك لا يأكل ولا يشرب بل ولا ينام أنها هي التي كانت تتحايل على زيارتك وهي التي كانت تعمل وتدخر لك الأموال .. وكل هذا ليس حبا .. بل أنها تعذب نفسها من أجلك .

وقال الشاب : أنا أعرف أنها تحبني ولكن حبها صامت جامد .. لقد تمنيت في وقت من الأوقات وما أزال أتمنى أن تكرهني . أن تتركني .. أن تتشاجر معي أريد أن أشعر أنها تقاومني وأقاومها أن يكون بيننا شيء .. أبدا أنها تنتظرني حتى أعود .. ولكن كما تنتظرني المقاعد والأطباق والأبواب تماما . وأعرف أنها تبكي عندما أمرض ولكنها تبكي كما كانت أمي تفعل عند قبر أخي فانا قبر ، وهي أمي التي تبكي . بل أريدها أن تضحك أن تكون سعيدة وأنا مريض أن هذا يجعلني أؤمن بأن مرضي ليس إلا شيئا عابرا وأنني سأعيش وسأتغلب على مرضي .. كما تغلبت هي على دموعها .. وكما تغلبنا نحن الأثنين على الناس لكي نعيش معا .. أنها تحبني على طريقتها .. ولكن يا سيادة القاضي ما هي طريقتها ؟ أنها القضاء

على حياتى أن كلامى لا معنى له ، — فهى لا تسمعنى وإذا سمعتنى لم تفهمنى ، وإذا فهمتنى فأنها تفضل السكوت . . أن حياتى بالنسبة لها لا تساوى إلا بضعة ملاليم . . مع أن حياتى تساوى أكثر من هذا بكثير . . أننى لست غنيا ولكن المال الذى عندى قد كسبته بتعب وأرهاق لا يعرفه الأغنياء فالمال الذى أكسبه ليس بالقليل ، بل هو كثير من المجهود والتعب والعذاب واللذة ولهذا أريد أن أترك هذه الفتاة التى أحببتها لأنها صاحبة عاهات مستديمة .

وقال القاضى : أنك هربت من المشكلة . . لماذا لا تأخذ بيدها . . لماذا لا تنبه حواسها النائمة ؟ لماذا لا تصبر عليها . . ألا ترى أنك قسوت عليها جدا . . أنك عذبتها بلا ذنب . . ما جريمتها ؟ . . أنها تحبك وتخاف عليك وترى الدنيا كلها فى الجلوس إليك . . أنا أعرف أنها لا تقول لك ذلك . . ولكن ألا ترى فى عينيها شيئا ؟ ألا ترى أن عينيها كالكتاب الذى تقرؤه والكتاب لا يتكلم . . لماذا تريد من زوجتك أن تكون أسطوانة صاخبة راقصة ضاحكة وبذلك تحبها . أن الإنسانية لم تعرف الأسطوانات إلا أخيرا وقبل ذلك . . عرفت الكتاب . . وعرفت قبل الكتاب مناظر الطبيعة . . عرفت القمر والأنهار والأشجار . . وهى جميعا صامته لا تنطق . . وإنما الذى ينطق ويتخيل هو الإنسان . . أو هم الشعراء وزوجتك تقول أنك رجل شاعر وأنك تنظم الشعر وزوجتك تحفظ الكثير من المقطوعات التى ألفتها فى جمالها وسعادتك إلى جوارها ؛ وعذابك

بعيدا عنها . . فلماذا تترك الشعر والفن وتريد من زوجتك أن تكون فرقة موسيقية وتقوم بدور القائد فقط . . وكل ما تعمله أنك تمسك العصا وتظل تتلوى يمينا وشمالا . . أنك تريد أن تكف عن الكلام أما الذى يتكلم فهو زوجتك . . أنت تريد أن تتحول إلى الصمت كزوجتك الآن تماما وما رأيك إذا هى شكت من صمتك ، وإذا هى شكت من أنها لا تساوى عندك شيئا . ما رأيك إذا جاءت زوجتك إلى المحكمة وطلبت أن تتركك لأنك تمثال جامد لا ينطق ولا يدرى بها ؟

وقال الشاب : سيدى القاضى . . هناك أشياء بين الرجل وزوجته لا يعرفها القضاة ؛ وهناك تصرفات لا يذكرها الرجل ولا تذكرها المرأة أبدا ولكن عندما يضطر الواحد منهما إلى ذكرها فأنها تأخذ صورة المبادئ العامة والقضايا الكبرى . . فأن الرجل الكريم لا يستطيع أن يقول للقاضى أو لأى إنسان آخر أن رائحة عرق زوجته كريهه مثلا وأن أسنانها متسخة ولكنه بدلا من ذلك يقول أن زوجته لا تقيم وزنا لزوجها ولا تقيم لمشاعره قيمة . . أنها لا تفكر إلا فى نفسها . . أما زوجها فأنها لا تفكر فيه . . ومعنى ذلك أنه كان يجب أن تغسل أسنانها وأن تضع بعض المساحيق على جسمها . . هذا ما يقوله الرجل الكريم . . وأشياء أخرى . . كثيرة لا يفهمها إلا الرجل وزوجته . . وأنا أقسم لك أننى أحب

زوجتى ولكنى لا أستطيع أن أعيش معها فأنا أخاف أن أصبح كالنافورة الجافة التى لا تستهوى إلا الحشرات . . أن كل ما فى نفسى حشرات . . والسبب هو أن زوجتى لا ترانى شيئا هاما فى حياتها . أنها ترانى إنسانا تافها . . أنها لا تقصد ذلك وكل شئ فى تصرفاتها يجعلنى أتحول إلى كوخ حقير مظلم رطب قديم مهجور . . وأنا أريد أن أهرب قبل أن يتحول الكوخ إلى كهف تسكنه الأشباح .

وقد فكرت فى كل ما قلت طويلا . . وأنا لست نادما والله على ما أقول شهيد .

* * *

وحكم القاضى بأنفصال الرجل عن زوجته ولم يكد يصدر القاضى هذا الحكم حتى بكى الزوج وإنهار . . أما الزوجة فعادت إلى بيتها وكأنها قد عادت من السوق ومعها بعض الضرورات واتجهت إلى المطبخ وألقت بقطعة من الخبز لكلبها الصغير وأشعلت الموقد وغسلت الملاعق وطهت طعامها وجلست تأكل دون أن تنتظر زوجها . . فى ذلك اليوم والأيام التى جاءت بعد ذلك . . ولم يحضر الزوج ولكن الزوجة تأكل وتنام كما لو كان هناك ! !

البحث عن بداية

لابد أن تكون لحكاية حياتها الغريبة بداية . .

ويمكن أن ابدأ حكاية حياتها بأن أقول : كانت فى الرابعة عشرة من عمرها عندما هبطت إلى باريس . . أو هبطت بها باريس، ومن سنتين عادت إلى القاهرة . . ولكن كانت حياتها قد انتهت . .

ويمكن أن ابدأ حكاية حياتها على الشكل الآتى فأقول : كانت وحدها فى باريس . . فتاة شرقية جميلة . وجهها كوجه طفل . . بشرتها وردية منتفخة وعيناها صافيتان ، وشفتاها صغيرتان مضمومتان فى حالة أستعداد دائم . . وشعرها ينهدل على جبينها ليبدو أكثر سواداً ، أو ليبدو وجهها أكثر بياضا . . ورأت بنات باريس . . وكلهن فى سنها . . فما الذى تفعله ؟

ويمكن أن تكون هذه هى بداية حياتها ، أو حكاية حياتها ، أو حكايتها مع الحياة : كانت أمها فرنسية . . وقد أحبت رجلا من مصر . . وعاشت معه فى باريس سعيدة به ، بشعره الأسود وعينيه السوداوين وخشونته فى عاداته ، وخشونة أخرى فى صوته . . وكانت تطلب إليه أن يعاملها كما لو كانت فتاة فى قصة ألف

ليلة وليلة ، أو قصص حاجي بابا . . ويطلب إليها أن يجلس فوق مقعد عال ، وأن تجلس هى عند قدميه . . تنظر إلى أصابعه المضغوطة الذليلة . . من طول الحبس . . وكانت هى الأخرى تشبه أصابعه . تريد أن تكون محبوسة فيه . . فى بيته ، فى عاداته ، فى طباعه ، وراء صوته الغليظ ، ووراء جسمه الضخم ، ووراء الباب المتداعى ، فى بيته الريفى . . ولكنها ضاقت بهذه الحياة . . أفاقت السيدة الفرنسية من هذا الحلم . . وأكتشفت أنها لم تعد مراهقة . . أنها كبرت . وأن زوجها لم يعد قادرا حتى على أن أن يكون شرقيا . . أنه غليظ بلا فن ، أنه خشن بلا معنى . . ووجدت الأم أن أبنتها صورة منها . . طويلة ممتلئة ، متفجرة . . قنبلة صاروخ ينتظر الإشارة لكى ينطلق بالنار والدخان إلى هدف . .

ولكن صاروخ من نوع آخر . . لا يتحرك . . وإنما تنطلق نحوه الأهداف . . عيناها . . صدرها . . بشرتها . . شعرها . . أمها . . أقصد ملامح أمها . . وقررت الأم أن تبعث بأبنتها إلى أوروبا . . إلى باريس بالذات . . عند أقاربها هناك . . وسافرت الأبنة . . وأختلف الأب المصرى وزوجته الفرنسية . . وخطابات الأثنين إلى أبنتهما فى باريس ، تروى قصة غريبة فكل من الأب والأم يتهم الآخر . . وأحتارت الأبنة فى باريس . . ولا تدرى ماذا

تفعل . . ولا من الذى تتهمه . . ومرضت الأبنة . . ولزمت الفراش وتعودت أن تلزم الفراش ، بعد كل مجموعة من الخطابات . .

* * *

ويجوز أن تبدأ قصة حياتها باليوم الذى ألتقت فيه بأحد أساتذتها فى باريس . . كانت قد لزمت الفراش . . أو لازمها الفراش . . وكانت السماء تمطر . . ولأول مرة تشعر بالرعب . . أنها فتاة صغيرة . . ولم يكد الأستاذ يدخل غرفتها حتى أنطفأ النور فى كل المنطقة . . وعلى ضوء الشموع رأت وجهه الأبيض . . ولحيته السوداء . . واللمعان الغريب الذى رأته كثيرا بعد ذلك . . وأحبته . . ثم كرهت أن ترى هذا اللمعان فى عيون كل الناس . . حتى لو كان هؤلاء الناس صورا فى المجلات . . وعلى ضوء الشموع سمعته يتغنى . . وسمعته يلقى شعرا جميلا تتردد فيه كلمات الحنان . . والحب . . وشبابك وجمالك . . ورأت فى عينيه الصدق . . وعانقت الصدق واستسلمت له . . وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها . . وفى باريس . . ووحدها . . وأبواها فى مصر على خلاف دائم . . وكانت تحب أمها ، وتشفق على أبيها . . ولم تفهم معنى كلمة : خدى بالك من نفسك يا بنتى ، ولم تفهم هذه الجملة ، التى كان يقولها أبوها فى ميناء الأسكندرية وهو يودعها . . وعندما عادت إلى مصر وتزوجت بعد ذلك بست سنوات . .

ورأت زوجها يقترب منها . . ورأت اللمعان الغريب فى عينيه . . أحست بمعنى عبارة والدها . . وأحست أن زوجها سيعتدى عليها . . وهربت منه !

* * *

وربما بدأت قصة حياتها على هذا النحو : كانت فى الصيف على شاطئ الريفييرا . . مايوه أزرق وبشرة بيضاء وردية . . وهزة خفيفة فى صدرها والتواءة غير مقصودة فى خصرها . . ورأسها ينحنى إلى الوراء ، مشدودا — بشعرها الأسود ، المشدود بدبوس به وردة . . وحاجبان مرفوعان . . مشدودان إلى أعلى . . وكتفاها عاليتان ، مشدودتان إلى الوراء إلى أعلى . . أو إلى أعلى فى تواضع . . قوامها غريب . . وخطوطها غريبة . . وكلها مرفوعة . فى سياق نحو الرأس . . وكلمة تسمعها من شاب أسمر . . فعلا كان لونه أسمر . . أو لم يكن الصيف قد بدأ بعد . . وتقدم إليها ومد يده . . وعيناه فى عينيها ، فى كتفيها ، فى شفتيها ، فى قلبها ، وسحبها من يدها ؛ وأجلسها إلى جواره تحت الشمسية وأستسلمت . . كأنه موجة عاتية ، وكأنها زورق أنقطع الخيط الذى يربطه بالشاطئ . . وسألها الشاب : لماذا لم تسأليني من أنا ؟ لماذا لم تقاومى رغبتى فى أن أدعوك إلى الجلوس معى على الرمل ، تحت الشمسية ، وأمام كل الناس . . وقبل أن تفتح فمها . . قال لها : ليس من

الضرورى أن تقولى شيئا ، يكفى أن أنظر إلى شفتيك . . فهما أجمل ما فيك . . ولم تنس هذه الكلمة . . ومنذ ذلك الوقت وهى تمد شفتيها إلى الأمام . . إلى كل شئ . . إلى الكأس والسيجارة ، وشفاه الناس . . وكما جلست تحت الشمسية نهضت ، ووراءها الشاب الأسمر ، الذى قال لها لأول مرة فى حياتها : إذا لم تكونى زوجتى اليوم فسأنتحر . . ورفضت . . وأنتحر . . وعادت تلزم فراشها ، وتضع الشموع حول جسمها الأبيض الممدود تحت أغطية ثقيلة . . كأنها تابوت يحرس نفسه . . وكرهت الشموع . . وكرهت كل شئ أبيض . . الملابس . . والوجوه وضوء الشمس والماء واللبن والفرش الأبيض . . وكتبت لأمها تقول لها : لقد أرتكبت جريمة قتل .. لقد طلبت من شاب أن ينتحر من أجلى ، فانتحر . . هل أنا مجرمة ؟ ولم تصدق الأم أفكار أبنتها الصغيرة . . وتمنت لها السعادة . . وعندما وقع هذا الخطاب فى يد الأب ، أو على يده أو أصاب يده . . لعن الأم التى قتلت أبنتها . . وكتب لها يقول : عودى إلى مصر . . أنا فى أنتظارك .

ولكن الأبنة لم تعد فقد كانت غارقة فى حبها الكبير . .

* * *

ولما سألتها عن بداية قصة حياتها أختارت هى هذه البداية :

بداية حياتى بداية غير طبيعية . . رآنى أحد الشبان فى نادى الجزيرة

.. شاب جميل .. فيه رجولة .. ولا أعرف لماذا تحدانى ..
مع أننى لم أكلمه .. ولم أكن أعرفه ..

ولكننى رأيته يتقدم منى ويشتمنى ويقول عنى أننى مغرورة .. وأننى فاكرة نفسى أجمل فتاة فى العالم . ولم أفهم لماذا هذا الهجوم .. ولكنى تعلمت مثل هذه المواقف فى باريس . أربع سنوات فى باريس . وأنا صغيرة . حلوة . مراهقة . ووحدى . وأبى وأمى على خلاف بينهما . وليس عندهما وقت لى . ولذلك كنت أفكر وأختار لنفسى كل ما يتفق مع سنى وشبابى وأحساسى بأننى شرقية . وأننى يجب ألا أبدو أقل شجاعة أو حضارة عن بنات فرنسا .. فلما رأيت هذا الهجوم من هذا الشاب قلت فى نفسى أن هذا الشاب هو بالضبط الصنف الذى أريده من الرجال . أنه المغرور المتعالى .. الذى يعتقد أنه أقوى إنسان فى العالم .. وهذا النوع هو الذى يجعلنى أشعر بقوتى وسعادتى عندما أحطمه .. ولا أعرف لماذا قررت أن أهدم هذا الرجل .. وتمنيت فى لحظة شريرة أن أهدم مستقبله .. وأن أراه يتسول وأن أبكى بعد ذلك على قبره عندما يخرجون جثته من تحت قطار الصعيد .. ولماذا قطار الصعيد ، لم أفهم ؟ ولا أعرف حتى الآن ما الفرق بين قطار الصعيد ، وقطار وجه بحرى ..

لقد تحدانى وتحديته أيضا .. وأقسمت بينى وبين نفسى أن

أكون زوجة لهذا الرجل بعد أسبوعين . . ولم يمض أسبوعان حتى كنت زوجة لرجل لا أحبه . . رجل يختلف تماما عن الرجل الذى أحببته فى باريس . . وتعلمت من هذا الزواج أن هناك شيئا أقسى من القتل . . أقسى من النار ، أقسى من الموت . . شيئا أسمه : الاحتقار . . الغثيان ، أن ترى إنسانا وتقرف منه . . من شكله . . من رائحة عرقه.بل من تصورك بأنه يعرق وأن هذا العرق على شكل قطرات . .

هذه القطرات كنت أراها دمامل شفافة تظهر على الجلد . . كرهت هذا الرجل من كل قلبي . . لا أقصد من كل قلبي . . فقلبي لم يدخل فى هذا الزواج ولا فى هـذه العلاقة . أقصد أنى كرهته من كل جسمى . ولا حتى جسمى له صلة فى هذا الزواج . . لم أكن أشعر بجسمى . لم أشعر أن لى جسما . وإنما كرهته من كل . . لا أعرف من كل ماذا . . إنما كرهته من كل حياتى . . من كل فكرى . . كرهته . ولم أعرف السبب . وعرفت أن الزواج الذى ليس فيه حب ، هو أن يتخصص أثنان فى كراهية كل منهما للآخر . . ولكنه لم يكن يكرهنى . . وإنما كرهته . . وكرهت كل الرجال . . الذين فى عيونهم نظرات غريبة . . وفى عينى زوجي نظرات غريبة . نظرات فاجرة لقد أزعجت أنه يريد أن يغتصبنى أنه تصور فى لحظة من اللحظات أن هذا العقد

الذى وقعه معناه أنه يرغمنى على أن أحبه .. على أن أعطيه ما يستحقه ولكن أحداً لا يستحق شيئا .. لا أحد يستحق نظرتى ولا دمعتى أحد .. كلهم أصحاب نظرات غريبة . أحتقرها .. نظرات أقابلها بمغص فى معدتى . وشئ مر أقذفه من فمى وأدوسه بقدمى . وكان لابد أن أهرب .. وهربت .. وهربت .

* * *

ولما أحسست أننى أقتربت منها . من نفسها . من أعماقها المظلمة الباردة المرتجفة ، سألتها : ولماذا تفضحين نفسك هكذا أمام النساء والرجال . أننى أرى ملابسك ممزقة وآراك لا تكفين عن الخمر .. بجنون تشربين . وبجنون تدخنين مجنونة بجنون . لماذا تعاكسين الرجال أمام النساء . والنساء أمام الرجال . لماذا تكشفين كل نفسك وكل جسمك . لماذا يسعدك أن يسخر الناس منك .. أننى أراك لا تكفين عن الكلام . تكرهين الصمت تكرهين السيجارة الخامدة ، والكأس الفارغة .. والأزياء المحتشمة .. أننى أراك تخجلين من خجلك .. من طبيعتك أن جسمك وحش ، ووجهك ملاك .. أن وجهك صغير مثل عقلك ، وجسمك كبير مثل قلبك .. وأنت فى ثورة على شئ .. على أحد .. على نفسك .. على كرامتك .. على أحساسك .. أريد أن أفهمك .. تكلمى .. قولى أى شئ وأنا أفهم بعد ذلك .

وربما كانت هذه هى البداية الحقيقة لقصة حياتها . .

. . لقد ضمت ساقيها الممدودتين . . ومسحت وجهها . . ومن عينيها الصافيتين لمحت شيئا من الحزن والندم . . ومن هذا الوجه الصغير أطل طفل برئ يتلمس ثوب أمه . . حضنها . . أى حضن . . أى حنان . . قالت : أنني أريد أن أهرب من نفسى . . لا أريد أن أفكر فى شئ . . أن الذى أفكر فيه سيجعلنى أبكى . . وأبكى بصورة مجنونة . . أننى أتكلم طول الوقت وبصوت مرتفع حتى لا أسمع نفسى . حتى لا أحس بنفسى . أننى أشرب . أدخن . أرقص أحطم نفسى . . أحطم الجسم الذى لم تعد له قيمة . . لم يعد لهذا الجسم لون ولا طعم ولا رائحة . . ليس ناعما . . ليس شابا . . ليس معطرا . . أنه بخار . . ضباب . . سحاب . هباء . أنه لم يعد يهمنى . لم أعد أحس به . . لم أعد أحترمه . . أنى أحتقره أنى أسخر منه . . لم يعد مصدرا لسعادة أحد . . لم يعد حصنا لأحد . أن اليد التى كانت تلمسه قد انقطعت ماتت . . أن أستاذى الذى أحببته بكل طفولتى . . لم يعد له وجود . . وأنا لم يعد لى وجود . . أننى أسخر من كل النساء . . أننى أتعرى أمام كل الرجال حتى تخجل كل امرأة من نفسها . . تماما كما أخجل من نفسى . . أننى أتعذب مره أخرى من إحتقارى لنفسى . . لجسمى . . أتعذب لأننى أبدو هكذا مضحكة . . شاذة أمام كل الناس .

وفى نفس الوقت أجد لذة لأنى أعاقب جسمى . . أعاقب نفسى كأننى الذى أخترت الزواج من رجل لا أحبه . . أخترت أن أعطيه ما لا أريده . أكره عذابى . وأحب إحتقارى لنفسى . . لقد أدخرت كل شئ للرجل الذى أحبه . وراح الرجل وضاع كل ما كان عندى . ولم يبق لزوجى أو لأحد من الناس أى شئ فى جسمى أو فى نفسى . أنى لا أستطيع أن أكون وحدى . . أننى هاربة من وحدتى وعندما أكون مع زوجى فأنا أيضا وحدى . أنه يذكرنى بحبى الأول . .

ولذلك فأنا أهرب من زوجى . . وعندما أكون مع الناس . . فأننى لا أشعر بهم ولا أراهم . . وإنما أشعر أيضا أننى وحدى . . وأهرب من وحدتى هذه بالغرق فى الخمر والدخان والعرق والصراخ . . وسأظل أطارد نفسى وأمشى على أطراف أصابعى وراء ظلى . . وأتهجم على الرجل الذى يذكرنى بحبى الأول . . وأحطم ذكرى حبى الأول وأرتمى فى أحضان الرجل الذى يجعلنى أحتقر نفسى . . وأحتقر الزواج معا .

* * *

وحاولت أن أجعل لهذه القصة بداية أخرى فسألتها :

ولكن لماذا قررت أن تكونى راقصة ، مع أنك تستطيعين أن

تكونى مدرسة . . أن تكونى مهندسة . . أن تكونى رياضية . . أن تكونى أما .

وقالت لى وهى تؤكد ، وأنا أصدقها هذه المرة ، أن هذه هى بداية حياتها كلها : لقد قررت أن أكون راقصة وأنا فى الثانية عشرة من عمرى . . لقد نهضت من النوم فى ساعة متأخرة . وكان ذلك فى أحد أيام الشتاء . ونظرت فجأة فوجدت أمامى مرآة فى نهاية الغرفة . . ولأول مرة أحسست أن بشرتى دافئة . . ساخنة . . ولمست ذراعى بيدى . . وشعرت برجفة ولففت ذراعى حولى . . عانقت نفسى وملت بخدى على كتفى العارية . وأرتجفت . ووقفت أمام السرير . ونظرت إلى نفسى . . وجهى وردى . وقميصى احمر . . ورفعت القميص قليلا . . قليلا ، ورأيت ساقين جميلتين وأنزلت القميص ورأيت كتفين مستديرتين . . ورفعت رأسى . . ورأيت وجهى جميلا مستديرا أيضا وأبتلعت ريقى . . كأننى أمام شئ لذيذ . . شئ حلو على لسانى . . ولا أعرف لماذا رقصت . . على السرير . . وأمام المرآة . . وقررت أن أرقص بعد ذلك فى كل مناسبة . . وبلا مناسبة . . وقررت أمى أن أذهب إلى إحدى مدارس الرقص . . ولكن أبى رفض . . وضربنى . . وأمسك العصا . . وضربنى على ساقى . . وترك علامات زرقاء . . كنت أراها وأصرخ . . وسافرت إلى باريس . . وألتحقت باحدى

مدارس الرقص . . ورقصت . . وصفق الناس . . لأننى كنت أبذل مجهودا كبيرا فى الرقص . . بينما زميلاتى يرقصن بلا مجهود فى خفة . . ورقصت وحدى أمام المرآة . . وبلا مرآة . . ولم أعد أبذل مجهود فى الرقص . . وفى كل مرة كنت أفرغ من الرقص ، أجده فى أنتظارى . . أنه أستاذى الذى أحببته حبى الكبير . . وكانت على شفتيه قبلة حاضرة يضعها على كتفى . . وعندما أعود إلى البيت كنت أرقص له . . أنه أستاذى وأبى وأخى وزوجى . . وكل شئ فى حياتى . . وعندما فوجئت برؤية أبى وأنا أرقص فى أحد كباريهات باريس . . لا أعرف ماذا حدث . . ولكنى سقطت على الأرض وأفقت وأنا على صدر أستاذى وحبيبى الأول . . أما أبى فقد ظل مريضا فى أحد الفنادق . . ولما شفى من مرضه جاءنى يهددنى بالسفر إلى مصر . . وسافرت معه . . وطول الرحلة لم ينطق بكلمة واحدة . . وبعد وصولنا إلى ميناء الأسكندرية . . لزم أبى الفراش مرة أخرى . . ولم يبرح الفراش إلا ميتا . . منذ ذلك اليوم وأنا أفكر فى أن أكون راقصة . . فلم تعد للرقص قيمة ولا معنى . . فلن يغضب أحد . فقد مات أبى . . ولن يعوضنى عنه أحد . . فلم يعد يهمنى رأى أحد . . ولا حتى رأيى. فأنا يستوى عندى ، أن يرانى الناس بملابسى أو يرونى بملابس الراقصات . .

لم يعد عندى ما أخفيه عن الناس . . لم يعد عندى ما أحبه . . أو ما أحترمه . . . . ولذلك قررت أن يدوسنى الناس بعيونهم . .

* *

ولا أعرف لحياتها بداية . . فهى فى كل يوم تبدأ من جديد للقضاء على حياتها . . أنها تستدرج الناس إلى قتلها وإحتقارها وتسبقهم جميعا لتبصق على نفسها . .

مسكينة . . . أنها تبحث عن بداية لحياة كلها بدايات . . . . لملايين الخيوط البيضاء ذات اللمعان الغريب !

عريس بالليسانس

شاب حديث التخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب ، يذهب إلى بيت أحد الموظفين المتقاعدين . يدق باب الشقة ، ويسلم الخادمة رسالة ملفوفة ويطلب إليها أن تقدمها لسيدها . . وتدخل الخادمة ، وبعد لحظات تفتح الباب وتقول للشاب : أدخل . . سيدى فى الصالون ينتظرك . .

ويدخل الشاب حانى الرأس ويجلس على طرف مقعد وثير ، وقد وضع بعض الكتب وحقيبة وجريدة ومجلة على ركبته .

وينفتح الباب ويدخل « عبد الستار بك » وهو رجل طويل القامة له شارب مفتول وبين شفتيه سيجار غليظ ، وفى يده اليسرى مسبحة . . ويقف بالقرب من الباب وينظر إلى الشاب ويمد يده دون أن يتجه إليه . . فينهض الشاب وتسقط الكتب والمجلات فيدوس عليها بقدمه ويسلم على سعادة البيه . وسعادته يضغط على قطعة القطن التى حشرها فى إحدى أذنيه !

عبد الستار : أجلس مكانك . . أجلس !

الشاب : مع الشكر .

عبد الستار : ما الحكاية ؟ عندك كام سنة ؟

الشاب : ٢٥ سنة !

عبد الستار : سن الشباب والفروسية والتطلع لمستقبل عظيم . هل تركب الخيل ؟

الشاب : لا . .

عبد الستار : هل تلعب الشيش ؟

الشاب : لا . .

عبد الستار : كم مترا تستطيع أن تسبح فى الدقيقة ؟

الشاب : لا أعرف السباحة . .

عبد الستار : هل تستطيع صيد الأوز بيدك اليسرى ؟

الشاب : لا أعرف ضرب النار .

عبد الستار : ما شاء الله . أذن أنت رجل مستقيم ، رجل عاكف على الدراسة والعمل . هذا عظيم يا أبنى ! هذه سن المسؤولية والأحساس بالواجب والرجولة . لابد أن لك أما ؟

الشاب : طبعا . .

عبد الستار : وأخوة طبعا ؟

الشاب : أربعة أصغر منى !

عبد الستار : لقد كنت أكبر أخوتى وكنت أنفق عليهم . وهذه هى الرجولة أن يكون الإنسان كبيرا فى السن وفى المقام . . ينفق على أمه وأخوته وأقاربه الفقراء إذا استطاع .. هذا عظيم ..! أتقول أن لك أما . . وهى على قيد الحياة ؟

الشاب : موجودة . .

عبد الستار : أنت محظوظ يا بنى . . دانا أمى ماتت . وهل لك أب ؟

الشاب : مات .

عبد الستار : إذن أنت الذى تنفق على أمك وأخوتك . . هذه رجولة تستحق أن يضحى الإنسان من أجلها . . وأكثر الناس تضحية هم أعظم الناس . . طبعا أنت موظف . وفى هذه السن الصغيرة ؟ هذا عظيم . كم تكسب فى الشهر ؟

الشاب : ١٥ جنيها .

عبدالستار : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ١٥ جنيها ، أى ٥٠ قرشا فى فى اليوم ؟ ولكن ألا تكسب شيئا آخر ؟ هذا مرتب يكفى شابا ليذهب إلى السينما مرتين فى الأسبوع أو يدخن علبة سجاير كل يوم . .

الشاب : أننى أبحث عن عمل .

عبد الستار : عمل ؟ تقول أنك موظف ؟

الشاب : عن عمل بعد الظهر .

عبد الستار : هل تظن أنى مجنون ؟ هل تتصور بعقلك أنت ، أنى أقدم أبنتى لشاب مثلك ؟ أنت لا تصلح . . لا تصلح أبدا .

الشاب : لا أصلح ؟ لماذا ؟

عبد الستار : وتسألنى لماذا ؟ لماذا تريد أن تتزوج ابنتى بهذه السرعة . أنت ما تزال صغيرا وفلوسك أصغر من سنك . . ثم أنا لا أفهم لماذا أخترت أبنتى بالذات ؟ هل دخل فى رأسك أن أباها متقاعد لا يعمل فى الحكومة ، أنه أيضا لا يفكر وأنه تقاعد عن التفكير ؟ أبدا ، أننى أفكر الآن فى أسرتى وأبنتى الوحيدة ! أنت مجنون يا أستاذ !

الشاب : . . . . . .

عبد الستار : لم تقل ما الدافع ؟ لم أفهم . .

الشاب : والله لا شئ إلا الحب !

عبد الستار : إلا أيه ؟! لا شئ أسمه الحب . . هذا كلام فارغ وأوهام شبان مفلسين مثلك وشغل تياترو !

الشاب : ولكنها قبلت أن تتزوجنى .

عبدالستار : هى التى قبلت ؟ وأنا هنا طورطور ؟! هل تظن أن أوامرى لم تعد تطاع — لابد أنها أخبرتك بأنها ذهبت للسينما فى الأسبوع الماضى على الرغم من أننى عارضتها . . لابد أنها ظنت أن كل شئ يمكن أن يسير هكذا . . أبدا !! أنا رجل جاد وأوامرى صارمة . فلا تحاول أن تغضبنى على ابنتى ! ثم لم تكتب فى الطلب الذى قدمته لى ، ماذا تحمل من الشهادات يا حضرة الأستاذ ؟

الشاب : الليسانس .

عبد الستار : ولماذا لم تشتغل محاميا بدلا من التدريس . . هذا العمل الشاق القليل الأجر .

الشاب : الليسانس التى معى هى ليسانس فى الآداب ، وليست فى الحقوق . .

عبد الستار : فماذا تدرس للطلبة يا حضرة ؟

الشاب : أدرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس !

عبد الستار : تدرسها لمن ؟

الشاب : لطلبة المدارس الثانوية .

عبد الستار : وماذا تقول فى هذه الفلسفة ، لا أفهم ما قيمة هذه الفلسفة . . ما هذه الفلسفة ؟

الشاب : الفلسفة هى محبة الحكمة .

عبد الستار : محبة ماذا ؟

الشاب : الحكمة . .

عبد الستار : هذا حسن . محبة الحكومة واجبة . . وطاعة الأوامر فضيلة كبرى . . الشعب يجب أن يطيع الحاكمين والأبناء يجب أن يطيعوا آباءهم .

الشاب : أقول محبة الحكمة . . الحكمة . .

عبد الستار : ما الحكمة هذه ؟

الشاب : يعنى الكمال فى كل شئ . .

عبد الستار : يعنى أيه ؟!

الشاب : فى الفلسفة نحن نتعمق الأشياء ونتساءل عن العلل الكامنة وراء الأشياء التى يراها الناس بأعينهم فحسب، أما نحن فنذهب إلى أبعد من ذلك . .

عبد الستار : هو كل شئ عندك حب . . حب أبنتى وحب الحكمة ؟! ولكن بماذا ترى هذه الأشياء التى تقول عنها ؟ إن نظرك ضعيف جدا . . كم نظرك ؟

الشاب : عينى اليسرى ٦ على ١٨ . . وعينى اليمنى أضعف قليلا .

عبد الستار : ما شاء الله . وتقول أنك ترى أكثر من الناس ؟ هذه هي الفلسفة ؟!

الشاب : أريد أن أقول أننا نرى الأشياء بعقولنا ، ونضع الوجود تحت « مقولات » وأستطيع أن أضرب مثلا . .

عبد الستار : لا ! لست فى حاجة إلى أمثلة فعندى حضرتك أحسن مثال ! إذن هذه هى الأفكار التى أدخلتها فى رأس أبنتى وجلعلتها تتصور أنها قادرة على أن تتزوج من حضرتك دون مشورتى ، وتجعلك تكتب طلبا تقول فيه : أن حياتكما قد أصبحت شيئا واحدا منذ الأزل ! كلام فارغ ! من الذى أشار عليك بتعلم هذه الفلسفة ؟

الشاب : أنا .

عبد الستار : أنا فهمت الآن . هل الفلسفة هى أنك لا تستشير أحدا . لماذا لم تطلب رأى أحد أقاربك هل تدرس الفلسفة أو هل تدرس القانون أو الطب ؟ هذه فلسفة ! تسميها محبة الحكمة ؟ ياأخى لماذا لا تحب الفلوس ؟ هل الفقر فلسفة ؟

الشاب : الحب هو هذا الوجود كله . .

عبد الستار : الفلوس هى هذا الوجود كله ، والفلسفة هى

هذا الإفلاس كله ، هى حضرتك ! ليس فى جيبك مليم واحد يا أستاذ . . مليم واحد !

الشاب : كيف ؟

عبد الستار : أسكت ! ليس معك فلوس توصلك إلى آخر أى شهر ولو كان نصفه أجازات ؟ أنت بائس يا حضرة المدرس يا حضرة الفيلسوف . بائس ومريض كم وزنك ؟

الشاب : ٥٥ كيلو . .

عبد الستار : يا أستاذ أنت تبعث على الرثاء . . أنت ستموت قريبا . . قريبا جدا ! وزنك خفيف ، ونظرك ضعيف ومرتبك ١٥ جنيها . . يا أستاذ عش راهبا ، عش نباتيا . أكتف بما كان يلبسه غاندى وهو فيلسوف مثلك . . أو أسرق . . أسرق يا حضرة المحترم . .

الشاب : كيف !

عبد الستار : حتى السرقة لا تعرفها ! لا تعرف كيف تعطى الطلبة دروسا خصوصية فى الأجازة . .

الشاب : لا توجد دروس فى الفلسفة . .

عبد الستار : كيف ؟ لا يرسب فيها أحد ؟

الشاب : من النادر جدا . .

عبد الستار : هذا هو الشقاء ، ولكن يا أخي أنت تستحق هذا وأكثر . . لماذا تدرس علما سهلا ، لماذا لا تشتغل بتدريس علم صعب يرسب فيه الطلبة عادة . . لماذا لا تدرس اللغة الإنجليزية ، لماذا لا تدرس الجبر والهندسة ؟

الشاب : هناك أساتذة مختصون .

عبد الستار : يعني مفيش فايده ؟!

الشاب : طبعا . .

عبد الستار : وهنا أيضا مفيش فايدة !

الشاب : كيف ؟

عبد الستار : لم تفهم حتى هذا ؟ أقصد مفيش فايدة أن أزوج أبنتي لمدرس تعبان مثل حضرتك . أنا لا أنسى أن حضرتك ساعدتها في المذاكرة . وأنا لا أستطيع أن أزوجها لمثلك . . إلا إذا كنت أريد منك أن تعطيها دروسا خصوصية في مقابل ١٥ جنيها في الشهر أدفعها لك . . على سبيل المساعدة ، ولا أدرى كيف تقبلها منى ؟ وأنا رجل طيب أثور أحيانا ولكن قلبي ينفطر دائما لمناظر الفقراء . .

الشاب : مساعدة ؟ أنا لست في حاجة إلى أى إنسان؟

عبد الستار : تقول بوقاحة أنك لست فى حاجة إلى مساعدة . . يا أستاذ ليس مرتبك إلا مساعدة . هذا المرتب هو « بدل تسول » . . هذا المرتب يغنيك عن مد يدك . . تفضل ! تفضل يا أستاذ ولا تتعجل فى الزواج كما تعجلت فى دخول قسم الفلسفة !

الشاب : ولكننى أحبها !

عبد الستار : لا يوجد شئ أسمه الحب ! قلت لك ألف مرة . . فاهم يا حضرة . .

الشاب : وهى تحبنى . .

عبد الستار : كذب !

الشاب : هى التى قالت لى .

عبد الستار : لابد أنك سمعتها بعينيك !

الشاب : أنت لا تتصور . . مدى هذه الصدمة فى نفسى ! هذا حرام عليك !

عبد الستار : أخرس ! أنت وأمثالك تستحقون الصدم والهدم والموت . . كيف تستبيح لنفسك يا حضرة المدرس المربى الفاضل أن تعذب فتاة من أسرة كريمة . . أن تنفق شبابها مع فقير واهم . . بأى فلسفة تجعل عذابها مباحا حلالا . . ثم تقول دون حياء أنك

تحبها . . تحبها . . ماذا ؟ تحبها فقيرة دائخة مريضة ؟ إنصرف ! قلت لك إنصرف !

الشاب : ولكن يا سعادة الـ . .

عبد الستار : إنصرف ! إنصرف !

الشاب : الحل الوحيد هو . .

عبد الستار : هو أن تفكر كيف تعيش أنت أولا . . وأخوتك يا حضرة الأستاذ وأم حضرتك . . هؤلاء أولى من أية فتاة فى العالم بالعناية والرعاية . . هذه هى الرجولة . . هذه هى التضحية . . ما عيب حب الأم وحب الأخوة وحب التضحية ؟! شباب تافه واهم . . إنصرف !

الشاب : لحظة يا سعادة البيه . . الحل الوحيد هو . .

عبد الستار : الحل الوحيد فى الشارع مش هنا . .

الشاب : . . . .

عبد الستار : لا تتكلم أبدا . . حضرتك درست ١٣ سنة وتنال جنيها واحد عن كل سنة ، ثم خرجت محطما قصير القامة ، قصير النظر ، قصير الحيلة . . أذهب يا أستاذ إلى أى مقبرة ، وأستعد للموت على مهلك ! ولا تحاول أن تمد يدك الذابلة إلى أى وردة

نضرة من بنات الناس . . نحن نسمى هذا حراما ، أما الفلسفة فتسميه حبا ! كلام فارغ وقلة أدب !

الشاب : أنا آسف .

عبد الستار : العفو . . الرجوع إلى الحق فضيلة . . ولو كانت عندك فتاة وتقدمت أنا إليها وكانت حالتى كحالتك لوجب أن ترفضنى فورا دون مناقشة . . مع السلامة يا بنى . .

الشاب : كنت أريد أن أقول أننى آسف فلم أتصور أن من هو فى مركزك يتحدث بهذه اللهجة . . أن الذى . .

عبد الستار : قلة أدب ! تسخر منى ! أنت يجب أن تأسف طول عمرك ، وأن تستلف عمرا آخر لتزداد أسفا على رأسك المملوء بالأوهام ، وجيوبك الفارغة من الفلوس . . أخرج ياأستاذ . . لماذا لا تشتغل ماسحا للأحذية . . لماذا لا تبيع فول مدمس . . هذه صناعات تجعل لك خبرة بالحياة وبجمع الفلوس وإحترام بنات الناس . . إنصراف ! أخرج . .

الشاب : . . . . . .

أصابع بلا بصمات

— ١ —

ما يعرفه الناس عنهما أنهما إخوان . وأنهما يلتقيان هنا فى هذا الركن من المقهى . وليس لهما أصدقاء . ويشرب كل واحد منهما كوبا من الشاى . ويتناقشان ويودع أحدهما الآخر عند باب المقهى . ويختفيان . وبعد أيام يعودان بنفس الطريقة إلى نفس المكان . ولكنهما اليوم مختلفان قليلا . كل منهما أرتدى بدلة وكرافته سوداء والحزن واضح عليهما . طلبا الشاى . عاودا الصمت وأقترب أحدهما من الآخر وقال فى هدوء بارد : أظن من المناسب اليوم أن نتحدث عن الموت .

وقال الآخر :

— كفى ما حدث لنا . . لقد مات أبونا . . ودفناه وقبله دفنا أمنا . . وأنقطع كل ما لنا فى هذه الدنيا . .

وعاد الأول يقول: لم ينقطع تماما . . فمازال هناك صلة تربطنا بأبينا . . عمتى .

وأعتدل أخوه فى جلسته . .

وقال : ما لها ؟

وبسرعة رد عليه الآخر : مالها . . مالها هو الذى يعنينى . . نحن بصراحة لا نعرف أين ذهبت فلوس أبينا . أنه لم ينس ما كان بينه وبين أمنا . . لا نعرف ، ولكنه عاقبنا نحن الإثنين لأننا صورتان من أمنا . . هذا الرجل الذى يرحمه الله قد ترك أمواله لأخته . . ولم يشأ أن يترك لنا شيئا .

— لا أعرف ماذا تقصد ؟

— أقصد هذه العمة المجنونة التى تنفق أموالها على الجمعيات الوهمية . . الخيرية . . مع أننا نحن الأثنان نصلح عضوين مؤسسين لأية جمعية خيرية . . نحن أحق من كل هؤلاء النصابين الذين يترددون على بيتهـا ويدعون لهـا بطول العمر . . وكارثة لو طال عمرها . .

ولم يرد أخوه . . ولا يريد أن يرد . . أنه دفن شهيته فى الكلام أيضا . . أو لعله يعرف أن أخاه هذا كثير الأوهام والأحلام ، وأنه لا يريد أن يستمر فى الكلام عن الموت والمال وعن عمته هذه . . وهو يفكر فى مشروعات أخرى . . يريد أن يترك القاهرة ويعيش فى المنصورة من جديد . . أن له بعض الأقارب هناك . . ولكن يمكن تفاديهم ، أو يمكن تحديد علاقته بهم من أول لحظة ، وتكون هذه العلاقة هى إحتقارهم والرغبة فى أن يتفادوه . .

أنهم جميعا بقايا أسرة أبيه الذى لم يشأ أن يقرأ الفاتحة على روحه . . لأن أباه لم يقرأ الفاتحة على روح أمه . . ولم يدرك أخاه أنه يفكر بعيدا بعيدا ، راح يهزه بيديه . ويقول :

— أين أنت ؟

ويهز رأسه قائلا : أننى أبحث لى عن مكان بعيد . . عن هنا . . وعنك أنت أيضا . .

وهو يعنى ما يقول ، فهو الأخ الأصغر وقد تعب وتعذب من أخيه الأكبر ، وهو يرى فى قرارة نفسه أن هذا الأخ هو الذى عجل بوفاة والده . . فقد تزوج من فتاة من الطريق ويدعى أنه طلقها . . وأحيانا يقسم أنه خطبها وأنه فسخ خطبتها . ولذلك لا أحد يعرف بيته ولا يعرف من الذى يعيش معه فى هذا البيت . . وكثيرا ماذهب الأخ الأصغر إلى بيت أخيه الأكبر فى أوقات مختلفة من النهار . ولم يجد أحدا هناك . وعندما عرف أخوه الأكبر ذلك غير مكان السكن . ولم يدعه مرة واحدة لزيارته فى بيته . ولذلك كان مجئ الأثنين إلى المقهى حلا لهذا الإشكال وخلقا لإشكال آخر عند زبائن المقهى . . فهم يسألون دائما من هما ؟ ولماذا يلتقيان هنا ؟ وماذا يقولان ؟ . .

وأختلفت إجابات الزبائن . ولكن أحدا من الزبائن لم يتقدم

لها ، أو لم يقترب أو يحاول . وظل الأخوان لغزا مزدوجا . ثم اعتاد الناس عليهما وأنطبقت عليهما الحكمة الشعبية : ربنا أمر بالستر . . وربنا أدرى بعباده . .

— ٢ —

وفى اليوم التالى عاد الاخوان إلى نفس المكان . وكان الأخ الأكبر هو الذى بدأ الكلام . وكان الكلام قد احتبس فى فمه . ولذلك كان يخرجه بسرعة وبقوة . وفى بعض الأحيان بصوت مرتفع . قال الأكبر :

— أسمع أريد أن أذكرك بشئ قديم من سنة أو أكثر . . كنا نتناقش فى موضوع المعجزات التى تحدث لبعض الناس .

وقال أخوه الأصغر وقد ظهر عليه الضيق والقرف وتلفت حوله :

— لا أعرف أى موضوع تقصد . .

وحاول الأخ الأكبر أن يغرى أخاه الأصغر بالاهتمام فقال : موضوع الزواج . . زواجك أنت . .

— طبعا أنت لا تقصد هذا الموضوع . .

— فعلا لا أقصد هذا الموضوع وإنما موضوع آخر . فكرت

فيه طويلا ولا أفهمه بوضوح . . وأنت الذى يجب أن تبصرنى . . فأنت تعلمت وأنا لم أتعلم . . أنا دائم التفكير فى الجريمة . . فى القتل: وقد أهتديت إلى نظرية : أن أحسن قاتل لك هو صديقك . . هو جارك . . أنه الإنسان الذى يعرف عنك كل شئ . . الذى يعاشرك . . الذى يعايشك . . يصادق الجريمة . . حتى يعتاد عليها ، فاذا وقعت لم ينزعج لا عند تنفيذها ولا بعد ذلك . . لأنه قد أرتكبها بالتفكير فيها طول النهار والليل . . وإن كنت أنا لا أفكر فى أحد بالذات . . ولكن أفكر فى أشخاص لا أعرفهم . . أدبر لهم الجرائم وأنفذها . .

وأتجه إليه أخوه : وتذهب بعد ذلك إلى السجن . . وتهرب من السجن وتختفى فى مدينة أخرى بأسم مستعار . وضمير مستريح وعندما يجئ الليل تضحك فى الظلام على هؤلاء المغفلين الذين لم يهتدوا إليك . . ثم تعود إلى إرتكاب جريمة أخرى بأسلوب آخر . . فلا يعرف البوليس من هو القاتل فى الحالتين . . وأحيانا تداعب البوليس فتبعث له بخطابات بإمضاءات مستعارة تقول فيها : أنك رأيت القاتل . . وتعطيهم أسماء أناس آخرين . . وتتلذذ بتعذيب رجال البوليس . .

ثم يسكت ويبتلع ريقه وينفض مع سيجارته الكثير من قرفه على أخيه . ثم يقترب منه ليقول: كل هذا لأن أباك هو أحد رجال

البوليس . . وأنت تريد أن تنتقم من كل رجال البوليس ، لأنك لم تستطيع أن تفعل ذلك برجل واحد هو أبوك . قصصك قديمة وأفكارك شريرة . ولن تقتل إلا روحك . . ولن تسيل إلا دمك . . ولن تحاكم أحدا إلا نفسك . . لن تسجن فى قلبك إلا خوفك : فأنت حارس الخوف وأنت الخوف . . حارسا وسجينا !

وبنفس الهدوء عاد الأخ الأكبر يقول : كنت أعرف أنك سوف تقول ذلك . . لكن ليس هذا ما أريده . . وإنما أريد أن نتعاون على فعل شئ . . أنت تكتب . . ولكن أنا الذى سأعطيك مادة الكتابة . . أنى أفكر من أجلك . . أنا كبرت ، وليس لى حظ فى الدنيا . وإنما أنظر إليك كأنك أبنى . وأتمنى لو أننى تركت شيئا من المال أو الأرض . . ولكنى لا أستطيع . . أنا أريد أن تكتب مجموعة من القصص المسلية للناس . وهى فى نفس الوقت خدمة لرجال البوليس . . خدمة لا تقدر بثمن . . أننى لم أكره والدى إلى هذه الدرجة البشعة التى تتصورها . . وأرجو أن تعطينى فرصة . .

وقال أخوه الأصغر : أنا أعرف أنك كاذب . . وأنك لا تريد الخير لنفسك فكيف تريده لاحد . . أنا أعلم أن السجن سوف يحل لك مشاكل كثيرة . . إيجار البيت . . والزوجة . . ثم أن السجن

سيكون تدريبا يوميا قاسيا – وتعذيبا لنفسك وإذلالا لجسمك . . أنا أعرف ذلك .

– أنا لا أعرف ذلك . . ولكن أرجو أن تسمعنى حتى النهاية . .

وراح الأخ الأكبر يروى قصص الجرائم المشهورة التى أرتكبها بعض المجرمين . . ولكن لسبب سوء تقديرهم أمسكهم البوليس فى النهاية . .

وعاد الأخ الأكبر يقول : هل تذكر جريمة الممرضة التى قتلت الطبيب . . أنها أحكمت إرتكاب الجريمة . . وسلطت عليه الأشعة . . وأرتدت ملابس المريض وخرجت بعد أن مسحت آثار أصابعها من أى مكان . وأرسلت خطاب تهديد إلى زوجة الطبيب التى تغار منها . . وعادت الممرضة بعد إرتكاب الجريمة إلى بيتها وأحرقت كل ملابسها . ولم يهتم بها أحد . . هل تعرف كيف عرف البوليس طريقها . . أن زراراً من حذائها قد سقط . . لقد فات المغفلة الغبية أن تحرق حذاءها أيضا !

– طبعا أنت سوف ترتكب الجريمة حافيا عاريا حتى لا يسقط منك أى شئ فى مكان الجريمة . .

– لابد أن يراعى الإنسان كل الاحتمالات . . أقصد على رجل البوليس أن يعرف كل هذه الاحتمالات . . هل تذكر البواب الذى

قتل صاحب العمارة .. أنه احتاط لكل شئ .. لقد أعجبت ببراعته وخفته .. لقد تسلق على المواسير .. ودخل الحمام . وخلع مفصلات الباب . وسحب الباب إلى الداخل . وتسلل إلى الصالة ونام تحت الكنبة .. وظل هناك سبع ساعات لا يسعل حتى عندما كنسوا الصالة .. أنه يعرف كل شئ عن الخادمة . ويعرف أنها لا تجيد الكنس أو الغسل أو الطبخ .. ولكن صاحب البيت بخيل ويفضلها على أية واحدة أخرى .. ويفضلها عليه .. لأنه لا يريده أن يتسلل إلى شقته .. ودخل على صاحب العمارة وهو نائم وخنقه .. على طريقة شجرة الدر عندما قتلت زوجها بضغط المخدات على أنفه .. حتى يموت بلا ضوضاء .. ولكن هل تعرف ما الذى نسيه هذا البواب المغفل .. لقد ذهب إلى دورة المياه وقام بتركيب الباب فى هدوء .. غسل الباب بالماء والصابون .. وغسل يديه .. ووجهه .. ويبدو أنه سمع وقع أقدام .. أو أى صوت آخر .. فسقط طاقم أسنانه من فمه فى حوض الحنفية .

وجمع الأخ الأصغر الصحف والأوراق التى وضعها على المنضدة استعدادا لأن ينهض . فقد مل هذه السيرة . وقد سمعها قبل ذلك عدة مرات . وأختلف الأثنان . ووعد الأخ الأكبر بأن يكف عن روايتها ، وأن يحفظ مثل هذه المشاريع لنفسه ..

وقال الأخ الأصغر : أسمع يا برهام أنت أخى الأكبر ..

ولكن أشعر دائما أنك الأصغر . . وأنني مطالب بإنقاذك . . فلست كبيرا كما ترى ويرى الناس بل أنك ترضع الشر وتجتر الدم . . وتقيم المشانق فى الهواء . . وليس أمامنا إلا شئ واحد ، أن نفترق الآن وإلى الأبد . . وعليك أن تختار اسما آخر غير برهام الطحان . . وعلى أن أختار أسما آخر غير شريف الطحان . . فان القاهرة لا تتسع لنا نحن الأثنين . . بل تضيق عنك وحدك !

أما برهام فقد ترك أخاه يمشي غاضبا . كما هى عادته . ولكنه يعلم أنه سوف يجئ فى نفس الموعد وفى نفس المكان غدا . فهما اخوان لا ينفصلان ، وهو يعلم أن أخاه شريف يحبه ، وليس صحيحا أنه يرى نفسه الأكبر عقليا . . وإنما هو يرى أن أخاه الأكبر فى مقام الأب . . بل أحسن من الأب . وهو يثير فى قلبه الشفقة منذ ترك العمل فى العام الماضى على أثر المشاجرة مع أحد رؤسائه . . وهو سوف يجئ غدا ، لأنه يخشى أن يتصور أخوه برهام أنه لا يريد أن يساعده ماديا . . بالقليل من المال .

— ٣ —

وبرهام رجل طويل عريض مسرف فى التدخين ، وفى شرب الشاى ويسرف فى النوم ، ويسرف فى اليقظة أيضا .

ولكنه رجل عملى . وهو لا يضيع وقته ، وهو يعلم أن أخاه

شريف رقيق ضعيف ، وأحيانا يصفه بأنه جبان . ويعزو سبب هذا الجبن إلى التعليم وكثرة القراءة والإغراق فى الخيال .

ولذلك ذهب برهام إلى عمته سعادات الطحان فى بيتها بالمعادى .. لقد مضى أكثر من يومين لم يرها . . فبعد جنازة والده لم يتوجه إليها ولم يسألها عن شئ . وهو فى الحقيقة يريد فقط أن يعرف أن كان أبوه قد أوصى له بشئ . فقد كانت هى موضع سر أبيه . وكان هو يسخر منها ويقول لها : كان من الواجب أن يتزوجك أبى . . ولكن يا خسارة لقد ولدتما متأخرين عن عصر حتشبسوت بخمسة آلاف سنة . . ولم تكن عمته تضحك لهذه النكتة . . وكان يحاول أن يشرح لها المعنى الذى يقصده . .

وفى الطريق إلى عمته أعد لها فى رأسه الحوار المطلوب . والقصص والنوادر . ووضع على وجهه ستارا زائفا من الحزن على وفاة الوالد . . والشكر له على أنه قد ترك وراءه هذه العمة الغالية . التى هى صورة من أبيه . .

وعلى باب بيت عمته وجد الخادمة أنعام . .انها ابنة خاله أيضا لقد أرتدت أنعام الملابس السوداء .

أذن عمته سوف تكون فى تمام الحزن والأسى . فالحزن قد فاض على الباب وأمام الباب . وأندفع إلى داخل البيت والدموع أنفجرت من عينيه بقدرة غريبة . . وأتجه إلى غرفه عمته ، وهو يعرفها وأنحنى على ركبتها وراح يبكى كالطفل : مات يا عمتى

. . مات . . لم يعد لنا أحد . . لقد كان قلبي كالحجر . . ذاب يا عمّي ذاب . . لقد رأيت أبتسامته وهو ينظر إلى . . لقد عاتبنى وسمعته يقول سامحتك يا بنى . . سامحتك . . ألف رحمة تنزل عليه . . ألف رحمة . .

وأختفت دهشة العمة فى هذه المظاهرة الباكية وغلبتها الدموع هى الأخرى . . وجاءت الخادمة ورأت الأثنين يبكيان . . فأتجهت إلى مكان فى المطبخ وراحت تبكى هى الأخرى . .

ومضى وقت عليهما وهما فى صمت تام . . يحرك كل منهما رأسه ولا يرفع عينيه عن الأرض . . وكانت عمته سعادات هى أول من تكلم . . فقالت فى حزن واضح . . وأرتياح أكيد : يا ابنى أنت راجل . . هذا لا يصح . .

وأستراح هو الآخر إلى هذه البداية : كنت أقول لنفسى ذلك ياعمّى . . ولكن لا رجل أمام الموت . . الموت له جلال . . وله رهبة . . وكلنا أمامه أطفال . . أقل من الأطفال . . كلاب أمام الموت . . تصورى زوجتى . . أغمى عليها ونقلتها إلى المستشفى . . والله أعلم . . أن كانت ستموت هى أيضا . . مع أنها لم تر أبى إلا مرة واحدة . . ولم تكد تراه حتى هجمت على يده فقبلتها . . لقد تمزق قلب أبى . . عندما عرف أنه يشبه المرحوم والدها . . تماما . . وأخرجت من حقيبتها صورة لتؤكد له ذلك . . وكانت

الصورة طبق الأصل . . المرحوم بابا . . مصيبة ياعمتى . . لا أنا قادر أرجع البيت . . ولا قادر أزورك هنا . .

ـ مصيبة يا أبنى . . مصيبة . . ربنا يصبرك يا أبنى . . البيت بيتك . . وبدل من أن تعيش بمفردك . . وأنا بمفردى . . تعال يا أبنى . . همنا واحد . . ومصيبتنا واحدة . . تعال يا أبنى . . يا ريحة الحبيب الغالى . .

وفى تلك الليلة أقام برهام فى بيت عمته . . ورأته عمته يقفل النور . . ويتأكد من محابس الحنفيات . . ويقفل الباب الخارجى بالمفتاح . . ويتأكد من أن عمته قد تغطت تماما أثناء النوم . . وفى الصباح يتوضأ ويصلى .. ويوقظ عمته لصلاة الفجر .. ويحرص على أن تتناول عمته الدواء فى مواعيدها . . ومن الأدوية الكثيرة عرف أن عمته تسرف فى تناول المنومات والمنبهات . . وتتناول أقراصا لتنشيط الكبد قبل الأكل وبعد الأكل . .

واستراح إلى الإقامة فى بيت عمته سعادات . . واستراحت العمة إلى ابن أخيها برهام . . وندمت على أنها لم تعرفه من وقت طويل . . فهو ليس ذلك الجاف الغليظ المخيف الذى صوره أبوه لها . .

ويبدو أنه نجح فى كل الاختبارات الخبيثة التى عقدتها عمته . . فقد تركت بعض الفلوس فى أماكن مختلفة من البيت . . وبقيت الفلوس فى مكانها وبعددها . .

وحاولت أن تخرج الفلوس من تحت المرتبة أمامه ، فكان يضع عينيه فى الأرض . . ولم تلاحظ أنه أقترب من المرتبة . .

وتركته مع الخادمة أياما متتالية . . وعادت تسأل الخادمة . . ولكن الخادمة أكدت لسيدتها أنه لم يبرح مقعده . . ولم يذهب إليها فى المطبخ . . رغم ما بينهما من استلطاف قديم . .

بل أن الخادمة لم تخف عن سيدتها أعجابها بشكله وعقله وحبه الشديد لعمته . . وإخلاصه فى حزنه على أبيه . . وأمتدحت أدبه وأحتشامه فى كل شئ . .

— ٤ —

وفى نفس المكان من المقهى . . ألتقى شريف وبرهام . . وكان شريف هو أكثر الأثنين حرصا على الكلام . .

وقال لأخيه : أنت الآن أحسن حالا . . وأهدأ بالا . . ألم أقل لك أن إنشغال الإنسان بالأعمال النافعة هو الذى يغرق كل شر فى داخله . . والمثل الشعبى يقول أن اليد البطالة نجسة أو لابد أن تكون نجسة ، وأنت الآن تزرع الحديقة لعمتى . . وتشرف على البيت . . وتعتذر لها عن حضور الجمعيات الخيرية . . أنت الآن مشغول وأنت الآن قريب من الوضع السليم لك . .

وضحك برهام لأول مرة منذ وقت طويل وهو ينظر لأخيه شريف كأنه يقول له : أنت ساذج . . أنت على نياتك . .

ولم يفهم شريف سر هذه الضحكة ومضى يقول : هل وصلت إلى شئ . . هل ترك أبونا عندها بعض المال لنا . .

وهز برهام رأسه يقول لا . .

وعاد أخوه يسأله : لم أفهم . . لم يترك عندها مالا . . ليس معقولا هذا . . أنه مات فى بيتها . . وأنت تعرف عمتك بخيلة شحيحة . . وأنا لا أستبعد أن تكون هى التى قتلت زوجها من من الجوع . . أو هى التى دست له السم فى الطعام حتى مات ممزق الاحشاء .. أنت وحدك الآن فى وضع يسمح لك بأن تقول ..

وأقترب برهام من أخيه ، وكما هى عادته تلفت حواليه وقال : أنت أنتهيت من كلامك . .

وهز أخوه رأسه بما معناه : نعم . .

فقال برهام : أنا فعلا قريب من الوضع السليم . . أنا الآن أعرف كل شئ عن عمتى . . ماذا تأكل وماذا تشرب . . وكيف تأكل . . ومتى تأكل . . وما الذى تعمله بالضبط فى هذه اللحظة . . أنها تقلب فى الحلل لتتأكد من أنه لا يوجد طعام قد تبقى من الأمس . . وهى الآن تشم أكواب الماء . . وبعد ذلك تفتح علب السكر والشاى

والبن وتفتشها بدقة . . وتعد قوالب السكر . . وهى الآن تقلب فى دفتر الحساب . . وتضرب ٧ فى ٢٨ . . سبعة قروش لبن وخبز وبيض فى ٢٨ يوما من أول الشهر حتى الآن . . وسوف تنظر من النافذة . . وتصرخ على الخادمة لتأتى بالمنشة لتطرد الذباب . . وسوف تجئ الخادمة تصرخ وتقول : تشترى د.د.ت. يا ستى .

وتتظاهر عمتى بأنها لم تسمع . . لأنها لا تريد أن تسمع . . وفى مثل هذه الحالات أتدخل أنا وأقول أن الـ د.د.ت. ضار بالصحة ، وأنى قرأت بحثا لاحد الأطباء ، يقول أن اللبن يمتص الـ د.د.ت. . . ولذلك فالبيت الذى يدخله الـ د.د.ت. يجب ألا يدخل فيه اللبن . .

وبلهجة جادة جدا حاول شريف أن يقطع هذا السيل من الاعترافات فقال : ولكن ليس هذا صحيحا بالمرة . .

— ماذا تقصد . .

— أقصد أن الـ د.د.ت. ليس ضارا إلى هذه الدرجة . .

— أنا لا أعرف إن كان ضارا أو نافعا . . ولكن هذا ما أقوله . . حتى لا تشترى عمتى هذه المادة . . وحتى تطمئن إلى أنى لا أريد فلوسها . .

— آه . . آه . . نسيت . .

— وأعرف جدول الأكل بكل دقة . . اليوم الأحد . . أنها تأكل كوسة . . وغدا فول مدمس بالبيض . . وبعد غد سبانخ . . وملوخية . . وبسلة . . وفاصوليا . . ومسقعة . . بدقة تامة . . ولم يحدث أنها غيرت هذا النظام . . هل فهمت . .

— فهمت . . وبعدين ؟

— وبعدين؟ لاشئ . . أنني فقط قريب من الوضع المناسب . . أنني الآن أذاكر الأرض . . أنني مثل لاعب كرة نزل إلى أرض الملعب ويقوم بعملية تسخين لنفسه . . أمشي على الأرض . . وأدرسها وأجرى بين العلامات . . وأرتمى بين الخشابات . .

— آه . . آه . . فهمت . . أنت الآن صديق للضحية . . أنت الآن أصبحت أقرب الناس إلى القتيل . .

— تماما بالضبط . . ولن أقع فى يد البوليس . . لقد حسبت كل شئ . . لن أترك أثرا . . ولا بصمة واحدة .

— أذن أنت قد قررت أن تقتل عمتى . .

— هذا قرار . . لى ولك . .

— وما داخلى . .

— أنت الوحيد الذى يعرف ذلك . . وفى نفس الوقت أنت لست مطالبا بأى شئ . . أنني أعرض عليك أفكارى فقط . . أنني

أضعها أمامك مثل بكرة خيط . . وسوف أقوم أنا بدور الإبرة التى تلتقط الخيط وتنفذ به إلى ثوب الجريمة . . وأنت ترى هدوئى . . وأطمئنانى . . لأننى قد فكرت فى كل شئ . . أسألنى . . أختبرنى . . أمتحنى . .

— هل هذا ضرورى ؟

— ضرورى جدا . . لى ولك . .

— دعك منى . . فأنا لا أراها ضرورية لك أنت . . ليس من الضرورى أن تدخل السجن . . ولا أن تموت أشنع موته . . ليس ضروريا أن أتعذب بفقدك . . ولا أعرف إن كان من الضرورى أن تصبح زوجتك أرملة . . وأولادك — إن كان لك أولاد — يتامى . .

— أنت تعرف أننى لم أتزوج . . ولن أتزوج . . فلا أريد أن يجئ لهذه الدنيا صورة أخرى منى . . فأنا صورة لا ضرورة لها من أبى . . أبى أيضا كان قاتلا . .

— أنت كذاب . . لم يقتل . .

— أنت عبيط . . لقد قتل . .

— أنت تريد أن تشوه الدنيا كلها لأنك مشوه . .

— بل لأن الدنيا مشوهة . . ما الذى تراه فيها من جمال . . أى جمال فى أن تكون أبنا لرجل قاتل قاس أتهم أمك بالخيانة . . أى جمال فى أن تكون عمتك هذه المريضة البخيلة تملك كل هذا الذى تملكه . . أى جمال فى أن شابا متعلما مثلك ينفق ماله القليل على رجل نذل جبان مثلى ؟ أى جمال فى أن تكسب قوتى بالدم لأننى لا أعرف كيف أكسبه بالعرق . .

وسكت الأثنان مرة واحدة . . كأن الجريمة قد نفذت وكأنهما ينتظران رجال البوليس بين لحظة وأخرى . . ونهض الأثنان فى وقت واحد . . ووقف الأثنان أمام الباب ولم يلاحظا أن النقاش كان عاليا فتنبه بعض الزبائن إليهما . . ولما وقف الأثنان أمام باب المقهى كانت العيون تتجه إليهما . .

— ٥ —

وفى ساعة متأخرة من الليل ذهب برهام يبحث عن دليله — وأسمها الحقيقى جليلة — ولكنه يسميها دليلة . . لأنها تناديه بشمشون . . ودليلة راقصة فى أحد كباريهات شارع الهرم . . وكان فى حالة لا تسمح له برؤية من يجلس إليها . . فى أحد أركان الكباريه . . أنه يعرف ما الذى تصنعه . . وما الذى يصنعه

الزبائن . . وهو الذى أختارها ورضى بها وبأسلوبها فى الحياة ولا أعتراض له على شئ . . وهو الذى قال لها : نحن من طينة واحدة . . أنت أحط النساء وأنا أحط الرجال ووجودنا معا صورة يجب أن يعرفها كل الناس حتى لا يفعلوا مثلنا . .

وعندما طلبت جليلة إليه أن يتزوجها أستنكر هذا الطلب قائلا : لا أسمع منك هذه العبارة مرة أخرى . . هذا إذا أردت أن تعيشى . . أننى لا أقوى على مقاومة رغبتى فى أن أقتل كل إنسان يرتبط بى . . أنا القطة التى تأكل أولادها . .

وقد أعتادت جليلة على مثل هذه المواقف الحادة منه . . ومن غيره فالناس أمام الخمر والقمار وحوش . . فالنساء كالفلوس هى القادرة على إمتحان صلابة الرجال . . أخلاق الرجال . . وقد سقط برهام فى كل إمتحان . . فهو ساقط فى نظرها . . ولذلك يثير شفقتها . . والرجال جميعا يدخلون قلبها من باب الشفقة . . وإن كان برهام هذا قد أقفل الباب وراءه فلم يتخط عتبتها رجل آخر . .

وعندما ذهب إليها فى الكباريه . . لم تكن لديه آية رغبة فى شئ . . لا فيها ولا فى فلوسها ولا فى النظر إليها . . بل أنه لاحظ علامة على خدها وأخرى على ساقها . . ولم يجد نفسه تطاوعه فى أن يعلق

بشيء . . ولـكنها رغم ذلك وضعت يدا على خد . . تخفى العلامة . . ووضعت ساقا على ساق تخفى العلامة . . وظنت أنه رأى ذلك . .

وأنه جاء ليحاسبها على الذى فعلته فى الأيام الماضية عندما كان يبيت فى بيت عمته . . وكانت تخشى الفضيحة فى الكباريه . . فأقتربت منه تخفى فزعها فى لهفتها عليه : مالك يا حبيبى . . أنت وجهك مخطوف مالك ياسيد الرجال . .

أما سيد الرجال فقد طلب منها : أن تذهب معه إلى البيت . .

ولما توسلت إليه أن ينتظرها ولو نصف ساعة حتى تفرغ من رقصتها هز رأسه قائلا : أذن أسبقك إلى البيت . . فأنا متعب . .

وأستراحت نفسها قليلا وسألته :

هل حدث شيء فى بيت عمتك ؟ . . هل جرى شيء لأخيك شريف ؟ ماذا جرى ؟ . .

ولـكنه لم ينطق بكلمه . .

وإنما أكتفى بأن قال لها : سأسبقك إلى البيت . . هاتى معك بعض السندوتشات . . وإذا وجدتنى نائما فلا توقظينى . .

وتركها . . وعاد إلى البيت . .

أما جليلة فقد أنزعجت . . فهذا موقف لم تره من قبل . . أن هدوء برهام مريب . . فهو ليس هادئا فى كل تصرفاته . . أنه

يتكلم بصوت مرتفع . . حتى أثناء النوم . . وهى لا تنسى . . يوم جاء إليها فى الكباريه منذ شهور وصفعها أمام الناس لأنها تأخرت عن موعدها . .

— ٦ —

وقبل الفجر بقليل صحت جليلة على بكاء برهام . . أنه يصرخ ويتقلب فى فراشه . .

وأيقظته جليلة : مالك يا حبيبي . . أنا عمرى ما رأيتك بهذه الحالة . . ماذا جرى لك ؟ من هم هؤلاء الناس الذين تتحدث عنهم .

وصحا من نومه . . وجلس فى فراشه يسألها : ما الذى قلته . . بدقة ماذا قلت ؟؟

— قلت . . السبانخ . . ملعقة واحدة . . أنتهى كل شئ . . لم يرنى أحد . . كانت الخادمة فى السوق . . فاليوم يوم السبانخ . . لا بصمات . . لا بوليس . . أكتب . . يا أستاذ يا متعلم . . أكتب هذه القصة . .

وأندهش برهام . . وسألها : هل أنا قلت هذا . . كل هذا ؟؟

— نعم . . وأكثر من ذلك ؟؟

ثم استطردت :

ـ من هذه التى أسمها أنعام .. راقصة أيضا ؟؟ لابد أنها راقصة درجة ثالثة لأن أحدا لا يعرفها .. أنعام ؟؟ وهل هذا أسم راقصة ..

ـ أنعام . . أنعام هذه خادمة عمّى وبنت خالى أيضا .

ـ خادمة عمتك . . أنت وصلت إلى هذه الدرجة . . تحلم بأنعام وأنت نائم فى حضنى .. خادمة ؟ عند عمتك البخيلة لابد أنها خادمة بجنيه فى الشهر . . أنا عارفه أنك رمرام . .

ـ وماذا قلت أيضا لها . . قولى أريد أن أعرف . .

ـ ظللت تقول : الفلوس تحت المرتبة .. الفلوس . . أنا المسئول أنا وحدى . . أخى لا دخل له . .

ـ أعوذ بالله .. كابوس فظيع .. أنها نتيجة طبيعية للهباب الذى شربته أمس . .

ـ أنت تشرب الهباب . . وأنا أموت نفسى كل ليلة من أجلك . . لكى آتى لك بأحسن المشروبات . . وأشيك الملابس وأفخر السجاير . . ثم تذهب إلى محلات الهباب لتشربه مع أنعام . . الله يقرفك . .

ــ أنت لا تفهمين . . سوف أروى لك ماذا حدث فى بيت عمتى . . أن أنعام هذه سيدة عجوز عمرها ستون عاما . .

ــ وأنت منذ متى تعرف الفرق بين الصبية والعجوز . .

ــ صدقينى . .

ــ أنا لا أصدقك . . ؟!

ــ لابد أن تصدقينى ولو هذه المرة . . كم الساعة الآن . .

ــ ما يزال أمامنا عشر ساعات حتى يجئ موعد أخيك على المقهى . .

ــ كم الساعة يا جليلة يا حبيبتى . . أنا تعبان جدا . . أعصابى مشدودة على آخرها . . قلبي يدق . .

ــ ألف نهار أبيض . . أصبح لك قلب . .

ــ ويبدو أنى سوف أفقده الآن إذا لم تخبرينى كم الساعة الآن .

ــ حتى لا تفقده أنها السادسة صباحا . .

ــ أريد كوبا من القهوة السادة . .

ــ كوب على الأقل . . وأسمها أنعام . . الله يقرفك . .

ــ ستعرفين فيما بعد . .

وأمام هدوء برهام غير العادى واضطرابه أيضا . . وأصفرار

وجهه . . لم تحاول جليلة أن تثيره . . وأكتفت بما قال . . أملا فى أن تسمع حقيقة ما حدث . .

وبعد أن شرب القهوة . . أرتدى ملابسه . . وكان واضحا أنه مسلوب تماما . . وأقترب منها وطلب إليها أن تواصل النوم . وأنه سوف يذهب للقاء بعض الأصدقاء على المقهى . . وأنه بعد ساعة سوف يعود إلى البيت وعليها أن تواصل نومها فى هدوء . . وعلى غير العادة قبلها على خدها . . وسحب عليها الغطاء . . وقبل أن يقفل الباب وراءه ، وعلى غير عادته رجع قبلها مرة أخرى . . وأختفت دهشتها تحت الغطاء ونامت . .

وبدلا من أن يذهب إلى المقهى ، أتجه مباشرة إلى محطة مصر . . وفى أحد الشوارع الجانبية وجد مقهى مفتوحا . . لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد . . وفى أحد الأركان جلس وطلب شايا باللبن وأشار إلى أحد باعة الصحف . . وأشترى صحف الصباح كلها على غير العادة .

وعندما أبتعد عنه بائع الصحف ، فتح أول صحيفة . . وجمدت عيناه على الصفحة الأولى . . عناوينها تقول : جريمة غامضة فى المعادى . . شاب يموت مسموما فى حديقة أحدى قريباته . .

وتروى الصحف تفاصيل الحادث . .

أما هذا الشاب ، فهو شريف الطحان .

أما عمة القتيل السيدة سعادات الطحان فهى لا تتهم أحدا . . ولا تتهم الخادمة التى تعمل فى بيتها منذ عشر سنوات . وهى لا تعرف ما الذى حدث . . ولماذا جاءها ابن أخيها المتوفى لأول مرة منذ وقت طويل . .

ويغمى على برهام الطحان فى المقهى . .

ويلتف حوله الناس ويحاولون تفويقه .. ولكنهم يفشلون . . ويستدعون سيارة الأسعاف . . وتحمله السيارة إلى أحد المستشفيات . . ويفيق وقد ألتف حوله رجال الشرطة والنيابة وعندما يتحقق من وجودهم إلى جواره . . يقترب وكيل النيابة ويقول له . . ماذا جرى أنت تقول كلاما غريبا . . تتحدث عن السم . . والقتل . . وعن أخيك . .

وهنا يدرك برهام الطحان كل شئ بوضوح . . ويقول : نعم أنا الذى قتلت أخى أنا وضعت السم فى طعام عمتى . . لأنها تخفى أموال والدى . . ولا أعرف لماذا ذهب أخى . . لا أعرف . . أنا غلطان لقد أطلعته على كل شئ . . لا أعرف ما الذى جعله يميت نفسه . . لماذا ذهب إليها . . لماذا أكل السبانخ . . أنه يوم السبانخ . .

ولم يفهم وكيل النيابة ما الذى يقوله برهام . . وعاد برهام يؤكد له : أنها قصة طويلة . .

ويروى له تفاصيل ما حدث . . وكيف أخفى السم فى طبق السبانخ . . وكيف أن ضميره عذبه بعد ذلك . . ويستشهد بصديقته جليلة . . وكيف أنه ظل يهذى طول الليل . . وإن كان لا يهتم كثيرا أن تعيش عمته أو تموت . . وكان يهمه أن تموت أكثر . . ولكن لم يتصور أن عقاب السماء سوف يكون قاسيا إلى درجة أن يموت أخوه . . أحب الناس إليه !

— ٧ —

وحوكم ونقلوه إلى السجن . .

ومضت سنوات . . ولم يفلح السجن فى إراحة ضميره . . أنه يبكى كثيرا ويضرب عن الطعام . . ويحاول زملاؤه فى السجن أن يهونوا عليه . .

وهم يؤكدون له أن السماء لم تقفل أبوابها فى وجه المعذبين . . فهو لم يشأ أن يقتل أخاه . . ولكن عمته لها عمر . . وهذا العمر قد أختصره الله من عمر أخيه . . أنها إرادة الله وشاءت إرادة الله أيضا أن يظل برهام مثل « طفاية السجاير » توضع فيها بقايا العذاب ولا تخمد . . وإنما تظل تكويه وتخنقه . .

وفى أحد أيام الزيارة المعروفة فى السجن . . طلبت أنعام رؤيته كانت مفاجأة . . أن جليلة توقفت عن زيارته . . ترددت كثيرا فى أول الأمر . . ثم أنشغلت وتوقفت زيارتها . . بل أنه هو الذى طلب إليها إلا تزوره . . وأن تعيش وتعيش . . فالدنيا حلوة . . والدنيا لم يخلقها الله لأناس يكرهون حياتهم . . ويكرهون أن يعيش الآخرون . . وجاءت أنعام . . وفرح بها برهام الطحان . . وكانت أول زيارة لها . . وحملت معها طعاما . . وبعض الكتب . . والملابس . .

ثم قالت له : يا برهام . . أنت لم تقتل أخاك بيه . . عمتك هى التى قتلته . . أنا رأيتها وهى تضع له السم . . أنا رأيتها بعينى . .

ثم أخرجت من ملابسها مصحف ووضعته على عينها وقالت : وحق هذا الكتاب الكريم . . وربنا يعميني أن كنت كاذبة !

وكان برهام لا يصدق ما يسمع . . ولا يدرى فائدة ما يسمع . . وعادت أنعام تؤكد اه ذلك : أنها مجرمة يا سى برهام بيه . . أنها مجرمة . . أنها قتلت الكلاب التى كانت عندما بهذه الطريقة . . أن زوج بنتها صيدلى كما تعرف . . وقد زارنا قبل مجئ المرحوم شريف بيوم واحد . . وأقفلا الباب عليهما وقتا طويلا . .

وهنا ظهر الاهتمام الشديد على وجهه وسأل أنعام : ولماذا زارها أخي شريف ؟ لماذا ؟ هل تعرفين يا أنعام . .

ـــ جاء يسأل عنك . . وقالت له عمتك أنه لن يجئ الليلة . . وطلبت إليه أن يبيت عندها . . وعانقته . . وأخرجت له كل ما عندها من حلوى . . وأعطته فلوسا . . وسألته ما الذى يحب من الطعام . . فطلب الملوخية . . ولم يكن ذلك يوم الملوخية . . كان يوم السبانخ . . وطلبت منى أن آتى بالسبانخ فى الجنينة . .

وسكتت لحظة وجففت دموعها . .

ـــ وعندما وضعت الطعام على السفرة . . طلبت هى منى أن أخرج لأشترى بعض الكوكاكولا . . رغم أن الثلاجة كانت مليانة . . وأندهشت . . ولسبب لا أعرفه الآن . . تأخرت قليلا فى المطبخ . . رأيتها تدخل بسرعة . . على أطراف أصابعها وتتلفت وراءها . . ثم تخرج ظرفا من جيبها . . نفس الظرف الذى أحضره الصيدلى وتفرغه فى الملوخية . .

ـــ آه . . يا حبيبى يا شريف . . أنها أذن لم تأكل السبانخ . . لم تأكل السبانخ . . لقد ملأتها سما . .

ومسحت أنعام دموعها وقالت . .

ـــ أسمع يا سى برهام بيه ، أنا كلمت سى حامد البكرى

المحامى اليوم . . أنه يسكن بجوارنا . . وذهبت معه إلى القسم . . وأخذوا أقوالى . . وربنا سيفك ضيقتك قريبا . . سى حامد البكرى قال للسيدة حرمه . . أنه سوف يخرجك من السجن . . وسوف يضع عمتك ، فلا تحزن !

وإنهار برهام الطحان وهو يصرخ . .

— أبدا . . أنا القاتل . . أقتلونى أنا . . أنا قتلت أخى . .

ثم يدخل . . ويختنى . .

وتعود أنعام إلى بيت السيدة سعادات الطحان !

— ٨ —

ويعاد التحقيق فى القضية . .

وفى المحكمة يعرف برهام الطحان أنه لم يقتل أخاه . . فهو وضع فى طعام عمته . . مادة سيانور البوتاسيوم . . ولكن المادة التى مات بها أخوه هى مادة الاستريكنين التى يقتلون بها الكلاب الضالة . .

ويسأل برهام الطحان : ولكن لماذا قررت عمتى أن تقتل أخى ؟ لماذا ؟ أنها لا تعرفه ! أنه لا يزورها ؟ أنها لم تسألنى عنه مرة واحدة؟ أنها حاولت أن تتصل به عن طريقى . . ولكنه هو الذى رفض . .

وعلم فى المحكمة أن والده كان قد أوصى بكل ما يملك إلى أخيه شريف . . وترك هذه الوصية عند عمته . . ولم يشأ أن يوصى له بشئ . . لأنه حاول أن يقتله أثناء نومه . . ولذلك قررت عمته أن تتخلص من الوارث الوحيد لثروة أبيه . .

وأفرجت المحكمة عن برهام ويوم خروج برهام من السجن هرب من رجال البوليس وعاد إلى السجن مرة أخرى . . أنه لا يريد أن يخرج أنه مصر على أنه قاتل أخيه . .

وقرر أن يبحث عن عمته . . وأن ينتقم منها . . ولكن عندما قابلته أنعام راح يقبل يديها ويقول : أنت أعطيتنى أبغض شئ فى الدنيا . . أعطيتنى حريتى . . حرية أن أبكى أمام الناس . . وأن أندم علنا . . وأن أرى إحتقارى فى عيون الناس . . السجن أرحم . . المجرمون أرحم . . الزنزانة أوسع من هذه الدنيا التى ضاقت فى وجهى . .

* * *

ويعود إلى نفس البيت الذى كان تسكن فيه « جليلة » كل شئ على ما هو عليه . .

يفتح الباب . . يدخل . . يجد ملابس أخرى على الشماعة . . وزجاجات . . وأكوابا . . وكئوسا . . ويجلس بعض الوقت . .

ويهز رأسه كأنه يقول لكل شئ حوله : معك حق . . معها حق . . حال الدنيا . . أنها تعيش فى خوف . . وفى حاجة إلى رجل . . إلى غفير . . يحرسها . . بفلوسها . . وتعطيه جسمها فوق البيعة . .

وينهض عندما يفاجأ بأن جليلة قد عادت من عملها فى الكباريه . . ولا تكاد تراه حتى تنهار بين ذراعيه . . من هول المفاجأة : من الخوف . . والفرحة . .

ويهز رأسه ويستأذنها فى أن يعود . . وتحاول أن تشده . . وأن تفهم . .

ولكنه تخلص من ذراعيها . . أنسلخ من جلده . . ومن جلدها أيضا . .

* * *

ويعود إلى بيت عمته . . فليس له مكان آخر غيره . . هنا مات أبوه وقتل أخوه . . وهنا كان يحاول أن يقتل عمته . .

ولم يبق إلا هو . . وإلا هذه الخادمة أنعام . .

ويجد أنعام فى المطبخ . . كأن شيئا لم يتغير . . أنها مثل المقاعد فى البيت . . والأشجار فى الحديقة تواصل حياتها ووضعها واستمرارها . .

ويندهش لهذا الهدوء فى كل شئ حوله . .

ويدخل المطبخ ويسأل أنعام : ماذا تصنعين ؟

وتظهر السعادة على وجهها وتقول : أطبخ لك الغذاء . . ياسى برهام بيه . .

— تطبخين ماذا ؟

— قلقاس . .

— قلقاس . . آه . . لم يكن هذا فى قائمة طعامها . .

— بالهنا والشفا . .

— بالهنا . . والشفا من كل ما حدث . .

— الرحمة تجوز على الحى أكثر من الميت يا سعادة البيه . .

— يبدو هذا صحيحا . . وهل تريدين أن تعملى فى هذا البيت بعد كل ما حدث . .

— خير ما حدث . . لقد خرجت من السجن ودخلت هى السجن . .

— ومات أخى . .

— إرادة ربنا . . ونعم بالله . .

— تعالى . . تعالى . .

وتقترب الخادمة أنعام منه .. ويقترب هو منها .. ويضمها إلى صدره ..

وينفتح الباب الخارجى .. وتدخل جليلة ومعها شنطتها .. ووراءها شيال .. أثنان .. ثلاثة ..

ولم يكد يرى جليلة حتى يسحب أنعام بشدة ناحيته ويحاول أحتضانها وتقبيلها فى شفتيها .. ورغم محاولاتها أن تفلت منه .. ولكنها لا تستطيع ..

وتتوقف جليلة .. وتضع يديها فى خصرها .. ومن ورائها الشيالون : من أجل هذه خرجت من السجن ..

ويظل محتضنا أنعام وظهرها فى مواجهة جليلة ويقول لها : بل بسبب هذه خرجت من السجن ..

— زوجتك ..

— زوجتى .. أتمنى ذلك .. لم أفاتحها فى ذلك .. هل فى أستطاعتك أن تتوسطى لديها . نقيدنا نحن الاثنان ستين عاما !

وهنا تعتدل أنعام وتنظر لترى الراقصة جليلة لأول مرة ..

وتقترب منها جليلة : هل تتزوجين سعادة البيه الذى قتل أخاه .. تتزوجينه يا شاطرة !

وتتنمر أنعام : انا خادمته ياست هانم . . وإذا رضى أن تكونى أنت زوجته . . أصبح خادمتك أنت أيضا . .

ويقترب برهام من أنعام يضمها مرة أخرى ويقول لها : لا أنت خادمة عندى ولا عندها . . أنت أخترت الحياة معى . . أنت أعطيتنى حريتى . . خديها . . خذينى . . فلن تأخذى كثيرا . . سوف تأخذين بقايا . . بقاياها . يا بنت خالى

ويشير إلى الراقصة جليلة التى أخذتها خيبة الأمل والمفاجأة : ثم يلتفت إلى أنعام التى تبدو فى حالة من الذهول وعدم الفهم . . ولكن على شئ من اليقين لأنها سوف تبقى فى هذا البيت .. مع هذا الرجل . . معه كزوجة . . كخادمة . . ولأول مرة تمارس شعورا جديدا بأن أحدا قد أمتن لها بما فعلت . . ويلتفت إليها برهام ويقول : مع الأسف . . هى تفهم — ويشير إلى جليلة — وأنت لا تفهمين . .

ولكن أنعام تحاول أن تقول أى شئ يرفع رأسها أمام هذه السيدة المتحدية والواقفة نصف عارية وراءها : بل فاهمة يا سيدى . . لقد دعوت الله كثيرا . . فأستجاب . .

— الله قد أستجاب لك . . أطلبى منه أن يحميك . .

وردت أنعام بسرعة التلميذة الشاطرة : طلبت وأستجاب لدعائى . . وأتى بك لتحمينى . .

وضحك برهام : بل يحميك منى . . أنت لا تعرفين . .

وأستدار برهام . . وأخذها من ذراعها . . وأقفلت جليلة الباب وراءها . .

وساد صمت . .

وإنهار هو يبكى . . وانحنت عليه خادمته أو زوجته . . ولم تفلح فى أن توقفه عن البكاء . . وكل ما أستطاعت أن تقوله : سلامتك يا سيدى . . ألف سلامة . . خدامتك يا سيدى . .

شعاع

(١)

إنسان على نياته . . سمعت هذه العبارة كثيراً تعليقا على تصرفاتى. كل تصرفاتى . مع أن هذه التصرفات فى بعض الأحيان لاتحتمل مثل هذه العبارة . فاذا طلبت رقم تليفون وجاءت نمرة أخرى ، فهل يمكن أن أوصف بأنى على نياتى . . وإذا رفعت يدى إلى التاكسى ولم يقف لأنه لم يكن خاليا ، فهل أوصف بأنى على نياتى ؟ أدق مايقال هو أننى انسان ضعيف النظر . أو أن رغبتى فى أن أجد سيارة خالية قد جعلنى لاأراها بوضوح . فأنا صاحب رغبة . وصاحب الرغبة أعمى حتى لو كان نظره ستة على ستة .

وقد اعتدت على هذه العبارة التى تجىء فى نهاية أى شىء أعمله أو أقوله . وأعتقد أنى صدقتها فى النهاية ، ولذلك لاأبذل مجهود فى عمل شىء ، وإنما أنا ألقى بنفسى على الخطأ لأن رأى الناس واحد : أننى حسن النية ، ولذلك فأنا غلطان دائماً . .

فاذا انتقلت إلى العلاقات الاجتماعية حيث مجال الخطأ الحقيقى وسوء التقدير لانهاية له ، لم يتغير موقف الأصدقاء منى . .

واعترف أنني بدأت أضيق برأى الناس . . فلا أظن أننى ساذج إلى هذه الدرجة ، وأن سذاجتى طبع ، وأن ذكائى هو نتيجة مجهودى . . نتيجة مذاكرة لما يفعله الخبثاء من الناس . . لاأظن ذلك . . .

وفى كل مرة أجلس بمفردى ، أجدنى قاسيا على نفسى فأقول ، ليه ياواد عملت كده . . ليه ياواد لم تكن أشجع من ذلك . . أن الشجاعة هى التى تكسب فى النهاية . .

ولكن شجاعتى لم تكسب فى أية نهاية . .

فقد حدث فى العام الماضى كنا شلة نمشى على النيل بالقرب من حديقة الأسماك فى الزمالك مرت بنا فتاة . . التفتنا إليها ، والتفتنا وراءنا لنرى الوجه الآخر للقمر . . وعندماكانت الفتاة إلى جوارنا قال أحدنا : شيك . . وقال الآخر : متعالية . . وقلت : ذكية جداً . .

وكان من نصيبى أنا أن أتلقى نظرتها . . نظرتها فيها امتنان لحسن تقديرى . . والله يعلم أن نظرتها ماتزال تقول لى الكثير حتى الآن . . تقول لى . . أو على الأصح أنا الذى اجعل نظرتها تقول كل مايعجبنى . . ومن الغريب أننى تصرفت عن خبث . . فالمرأة عندما تكون حيلة جدا ، فالصفة الوحيدة التى تثيرها

وتسعدها أن تتغنى بعقلها ، أما جسمها فهو مايعرفه كل الناس ويتساقطون عليه . . وهذا واضح من نظرتها لى بعد ذلك . . وصفقت للخبث الكامن فى نفسى . . وكان هذا التصفيق سرا لم يدر به أحد . .

وبعد أسبوع من هذا اللقاء العابر الذى أسعدنى وجدتها مع أحد. أصدقائى الذى قال أنها : شيك . .

كيف حدث ذلك لاأعرف . . لقد مزقتنى هذه الصدمة . .

لابد أن العيب فى عقلى وفى مظهرى . . لابد أننى مصدر هذه العيوب . إذ كيف ينجح كل هؤلاء مع البنات وأنا لم أنجح مرة واحدة . مع أننى أتكلم أحسن منهم وأقرأ أكثر منها . . وأجد ماأقوله . . وأحيانا استطيع أن أقول الكثير الذى يعجب الفتيات .. بل انهن يطلبن منى أن أقول أكثر وأكثر . .

إذن لابد أننى صديق لابأس به ، ولكنى عاشق فاشل . أو أننى قادر على تدفئة الجو وتهيئة القلوب للحب . . أنا مدفأة فقط . أو أننى قادر على تعكير الماء ، وغير قادر على الصيد . . أوبعبارة أخرى : أنا مجرد « طعم » يضعونه فى حبال الحديث وبعد ذلك هم الذين يفوزون فى النهاية . يجب أن أعرف ذلك . وأنا أعرف أن هذا قدرى . وأننى أصلح لأشياء كثيرة ،ولكن لاأصلح لأن أكون محبا أو عاشقا أو محبوبا أو معشوقا . . ليست عندى هذه الموهبة ، أو أن الله حرمنى من هذه الهبة . . .

(٢)

ويمكنك الآن أن تقول وأنت مطمئن : أنني مجنون . . .

فقد قررت أن أعتزل الناس : تعبت من نفسي . . وتعبت من الناس . وقررت أن تكون حياتى بلا نساء . .

كثيرون من الناس ليست فى حياتهم نساء ؟ الرهبان والجنود والعلماء والمجرمون والمجانين . . وأكثر المتزوجين ليست فى حياتهم نساء ، فهم يعيشون « إلى جوار » الزوجات ولايعيشون «مع» الزوجات . .

وكل الأطفال يعيشون بلا نساء . . يعيشون مع أمهات واخوات . ولكن لايعرفون المرأة . إذن سأضم نفسى إلى الأغلبية الساحقة من الناس . . سأكون على رأس جيش من « العزاب » باختيارهم ورغم أنوفهم . لقد حاولت النساء قبل ذلك أن تكون لهن حياة بلا رجال . . فهناك نساء « الامازون » أى اللاتى يأكلن لحوم البشر . .

والأمازون كلمة يونانية معناها الذين لايأكلون النباتات . . فهؤلاء النساء قررن أن يعشن بلا رجال . . ولكن فقط يلتقين بالرجال مرة واحدة ليحملن ويلدن بعد ذلك . أى مجرد علاقة

حيوانية فقط . فاذا كان المولود ذكر قتلته أمه . . وإذا كان أنثى احتفظت به . واحدة من هذه الأمازونات سافرت وراء الأسكندر، وأقامت معه ثلاثة عشرة يوما وعادت وانجبت من الآسكندر توأمين ذكرين . . فقتلهما وهى تبكى . .

وقررت أن أقتل بنات أفكارى الواحدة وراء الأخرى دون أن أبكى على حد . . قررت أن أكون رجلا فى عالم الرجال . .

. . واتجهت فورا إلى البحث عن أصدقاء . . أصدقاء بعض الوقت لا كل الوقت . فمن الصعب أن يكون الانسان صديقا لأحد دون أن يشاركه همومه أى الحديث عن المرأة . إذن سأكون صديقا إلى حد ما . ووجدت الصديق جارا لى . . قابلته على السلم صدفة ووجدت على وجهه ترحيبا بتحيتى . وحييته ومددت يدى . . وكأننى مددت « سقالة » إلى شاطئ الأمان . ونزلت بكل ثقلى وألقيت بنفسى على كرمه وحيائه . . فى لحظة واحدة . . وكأننى سمعت وقع جسمى على ضلوعه . . وندمت على أننى قدمت له نفسى وحياتى . .

وعرضت عليه صداقتى بسرعة . . ورأيت ارتيابه . . وندمت على مافعلت. وهو معذور لأنه لايعرف ماالذى دار فى رأسى. ولا ماالذى حدث لى . . وندمت أكثر عندما قررت فى اليوم التالى أن أوضح له ماحدث مع أن الذى حدث ليس أكثر من هذه

العبارة : أهلا وسهلا . أنا سعيد برؤيتك ، وأرجو من الله أن يجعل صداقتنا بداية عهد سعيد كريم بعيدا عن هوان وذل النساء . .

وكما ترى فليس للعبارة معنى واضح عنده . ولابد أنه انزعج لهذه المفاجأة المبللة اليدين . . فقد غمرني العرق ، كل وجهي ويدى . وأخرجت منديلا مبللا ومسحت العرق بالعرق .

وفى اليوم التالى وقفت بعيدا عن باب شقته . ووضعت يدى على الجرس وسمعت أنينا .هامسا خجولا . وانفتح الباب وأطلت فتاة طويلة بيضاء ، لم أر ملامحها بوضوح . . وقبل أن أكمل . . سؤالى . . انقفل الباب . . ولاأعرف ماالذى قلته ، وماالذى سمعته ولماذا اقفلت الباب فى وجهى ، أقنلتهعلى لسانى سدت الطريق أمام عينى وسدت نفسى . . وعدت إلى غرفتى فوق هذه الشقه بدورين، هناك فوق السطوح . . ومن الغريب أننى دخلت فى منطقة انعدام الوزن . . فلم أشعر بشئ . . لابالسلم ولابجسمى . . حتى أفكارى لم أعد قادرا على ترتيبها . . وألقيت بنفسى على سريرى وتركت الباب مفتوحا . . وجاء ذلك الكلب المسكين أيقظنى من أذنى . . وصوت من صوتى الألمة . فلم أكن أعرف — والله يعلم — أن لهذا « الصديق » أختا . . وأن ساكنا آخر فى هذا البيت قد عاكسها منذ أسبوع . . وأن هذا الساكن قد اضطر إلى أن يترك البيت بعد معركة صارخة ، كل ذلك لاأعرفه . .

فهل يمكن أن أوصف بأنني على نياتى . . لاأعرف . .

هل يمكن أن أوصف بأنني مجنون ؟ . . لاأعرف . .

(٣)

ولكن أصدقائى يؤكدون ذلك . .

ولكي أثبت حسن نيتى لسكان هذا البيت ، ولكل الشارع .. قررت أن أنزل فى ساعة مبكرة وأعود فى ساعة متأخرة . . حتى لايرانى أحد . . وحتى لاأرى أحداً . . منتهى القسوة . . أنه حكم أصدرته على نفسى ، وأنا أعلم أنه ظالم ، فأنا . . المتهم وأنا القاضى . وأنا الذى أصدرت الحكم وأنا الذى نفذته . أنها قسوة أخرى أضيفها إلى سلسلة الأحكام القاسية التى أصدرتها على نفسى . . يكفى أنني لاأدخن ولا أشرب القهوة ولا الشاى ولاأذهب إلى السينما . . أنني هكذا طردت نفسى من المجتمع الإنسانى وتسللت إلى عالم الأشباح والموتى . . ولايمكن أن يكون الفقر هو السبب : ولاموت أبى ولاموت أمى . وإنما هو شعور بالندم العام العميق . الندم على كل شئ . كأننى أنا الذى قتلت أمى وأبى . . كأننى «أوديب» الإغريقى الذى قتل أباه وهو يعلم ، وقتل أمه وهو يعلم . ثم قرر أن يعاقب نفسه على ذلك ، لابالموت ، فالموت نهاية للعذاب والعقوبة ، ولكن بالحياة والسير فى جنازة الجميع . .

ولاأعرف أن كان صحيحا ماأحس به كل ليلة وأنا فى طريقى إلى غرفتى .. أحسست مرة أن باب شقة هذا الصديق ينفتح أثناء صعودى السلم . . ولاحظت أن نافذة مطلة على الشارع تنفتح وأعتقد أننى سمعت : آهة . أو سمعت كلمة : آسفه . . ياكتكوت..

وكتكوت هو اسم الدلع . . أوسم التريقة الذى يطلقه أصدقائى وقد اعترضت على الاسم . ثم قبلته مادام ينطبق على حالى تماما . . فأنا إذا قورنت بهؤلاء الصقور والغربان ، لاأزيد عن كتكوت مسكين إلى جوار حائط ، يتوهم أن هذا الحائط بيته أو عائلته . .

وتوهمت — أيضا — ولاأعرف هل هو وهم — أن أقداما رشيقة قد صعدت السلم فى إحدى الليالى ، وأقفلت باب غرفتى . . هذه الأوهام أسعدتنى — وربما كانت حقائق . . ولكنى لم أعد أثق فى حواسى . . أننى أتهمها أيضا بالغش . . . وبالتآمر على ماتبقى من عقلى . . ولماذا لاتتآمر حواسى . . لماذا لايحدث انقلاب فى داخلى . . تمرد . . عصيانى مدنى . . ممكن . . ولذلك لم أصدق أذنى ورفضت ماسمعت . . بل رفضت أن تكون لى أذنان . . لقد تعبت عينى ، ولا أريد أن أعتمد على أذنى كمصدر لعذاب جديد . .

وفى إحدى المرات كان الصوت الذى يقترب منى واضحا لاشك فيه . . بل إننى أكاد ألمس مصدره . . وفتحت عينى ، ووجدت باب شقتى مقفلا . وفتحت شقتى وهذا من حقى . .

ووجدت نفس الفتاة فعلا قريبة من باب الشقة . . ولم تكن وحدها كانت معها فتيات أخريات . . وضحكن عندما رأينى ، وتمنيت لو أستطيع أن أقفل الباب فى وجوهن . . ولكن قوة خفية فى داخلى ضربت الباب وفتحته على آخره . . وهجمت الفتيات على الباب . . وفى ذهول وجدتهن يمسكن قطه صغيره كانت فى شقتى . . وخرجت من تحت السرير عندما افتتح الباب . .

والباقى يمكنك أن تتخيله . .

وفجأة اختفى كل شئ . . وهدأ . وعادت الألوان الباهته إلى أرضية السطوح . . ولون الأفق . . وراحت الملابس المغسولة الممزقة تترنح مع الهواء الذى تصادف هبوبه ليساعدنى على اقفال باب وراء باب . . وليدفننى من جديد تحت أغطية كثيفة من اليأس صخرة جامدة من الإيمان العميق : بأن هذا هو نصيبى من الحياة . وأن هذا القرار لارجوع فيه . . .

وأصبح من عادتى بعد ذلك أن أترك الباب مفتوحا للقطط والكلاب . . . فليس عندى ما أقفل عليه الباب . . لاأشياء ولا أشخاص . . ولا حتى أنا . .

ودفعنى اليأس إلى السخرية . . . السخرية من نفسى ومن غيرى وقلت لنفسى وقد وضعت ساقا على ساق . وأرتديت ملابس جديدة ، أخرجتها من دولابى . ومن علبة فى جيبى أخرجت سيجارا ، وليس سيجارة ، وعلبة كبريت جديدة . . فهذا أول سيجار فى حياتى وأول عود كبريت . وأول مرة أشعل لسبب آخر غير الزكام . . وقلت لنفسى : ولماذا لاأبعث بخطاب إلى إحدى المجلات وأقول فيه : شاب عمره ٢٧ سنة . جامعى . هادىء الطبع يحب الأدب والموسيقى افقه واسع ويمسك مصباح الفيلسوف الاغريقى « ديوجين » فى عز الضهر ويبحث عن صديق .

ولم تعجبنى هذه الصيغة المليئة بالقنزحة . . وعدلت عنها وكتبت : شاب جامعى وظروفه الاجتماعية قاسية من الناحية النفسية . كافر بالانسان وتعب من هذا الكفر . . ويريد صديقا يرد إليه إيمانه بالقيم الإنسانية . . ومزقت الورقة وكتبت : شاب جامعى يهوى القراءة والرياضة ، ويجمع طوابع البريد ، ويريد صديقا يراسله من مصر أو من أى بلد عربى . . عنوانى : ١٩٢ شارع عرابى الدور الرابع شقة ١١ شبرا — القاهرة . .

وحتى لاأتردد لحظة واحدة فى هذا القرار ، نزلت بسرعة ،

وألقيت بنظرة على باب شقة صاحبي . . ولاحظت أن الباب قذر وأن رائحة الطعام تتفجر من كل ثقب فى الباب . ثم نظرت إلى الباب مرة أخرى ، وتشجعت . ومن الشارع نظرت إلى نافذة شقة صديقى . وأظن هذا الذى رأيته كان زوجا من الشباشب القديمة . . أنها إذن أسرة عادية . . بل دون العادية . . تؤمن بالخرافات والسحر والعمل . . وأنني أرفض أن تكون لى صلة بهذه الأسرة . . أن الارتباط بها إهانة لكل ماقرأت وتعلمت وفكرت . . .

وفى تلك الليلة الماضية دخنت سيجارا آخر . . وذهبت إلى أبعد من ذلك : تعشيت فى أحد المطاعم على النيل . . وعدت فى ساعة مبكرة . وفى الطريق إلى البيت مررت على بائع السجائر واشتريت بطارية للراديو . . وحملت الراديو فى يدى وهو يغنى : دارت الأيام . . دارت الأيام . . وعدوية . . والطشت قال لى . . وتحت الشجر ياوهيبة . . وولد الهدى . .

وفى غرفتى فتحت الباب والنافذة والراديو ونمت ، أجمل وأسعد نومه . . حتى أصبح الصباح . .

(٥)

وصحوت . .

ومضت أيام . .

ونشرت المجلة رسالتى ضمن عشرات الرسائل الأخرى . .

ومضت أيام وأنا فى غاية السعادة مع أننى لم أفعل أى شئ . ولكنى سعيد . لم أحقق أية خطوة إلى الأمام فى أى شئ . ولكنى مبسوط . ولاحظت أننى بدأت أحلل أسباب انبساطى . . وأدركت أن هذا التحليل هو البداية المألوفة لشعورى بالغم والهم . فتوقفت عن التحليل والتعليل واستسلمت لهذا الإنبساط العبيط .

ولم اتلق خطابا واحدا من أحد . . من صديق . . أو من واحد يريد الصداقة . . أو حتى يعاكسنى . . أو يشتمنى . . المهم أن يصلنى خطاب شتيمة واحد وفى نهاية الخطاب عنوانه . . هنا فقط سوف يرى صاحب الخطاب أى وحش أنا . . أى ملاك يخفى فى أحشائه ابليسا حقيقيا قاتلاً بالفكرة وبالكلمة . لأول مرة ألاحظ وجه شبه بينى وبين أحد أقاربى الذى اعتدى على فلاح فى قريتنا . . ضربه بالسكين . ثم ذهب إلى البيت . . وأتى بمسدس وأطلقه عليه فمات . . وسلم نفسه للبوليس . والذى أدهشنى فى هذه القصة ليس أن قريبى سلم نفسه للبوليس فكثير من المجرمين يحاول

أن يكون شجاعا شهما لآخر لحظة ولآخر مرة . وبعد ذلك ينهار كأى كلب . . ولكن الذى أدهشنى أن الرجل الذى اعتدى عليه قريبي هذا لم يحاول أن يهرب ولا أن يستجير بأحد لانقاذه . ولا أن يستعين بالسلاح . . وإنما ظل جالسا فى مكانه إلى جوار الترعة ، كما أجلس الآن إلى جوار الباب ، فلما جاء قريبي وقف له القتيل . . ومات . . أن الشبه بينى وبين هذا القريب واضح جدا . . وخصوصا أننا نحن الاثنين لنا مظهر فى غاية الهدوء . وكأن قريبي هذا الذى حكم عليه بالاعدام قد بعث إلى الحياة فأمسكت ورقة وقلما وكتبت إلى رئيس تحرير مجلة « . . . »

وبخط صغير جداً ورقيق جدا . . كتبت :

« قرأت الخطاب الذى بعث به أحد القراء يشكو من الوحدة ويبحث عن صديق . لقد خجلت من أن يكتب رجل مثل هذا الكلام . ومن الصدف الغريبة أننى فكرت أن أبعث لمجلتكم المحبوبة خطابا ، ولكن حماقة هذا الرجل لم تنسنى عذابى ، بل ربما شجعتنى أكثر ، وأعطتنى عذرا قويا . فهناك رجال — أيضا — يشكون من الوحدة . فما بالك بفتاة لها مأساة عائلية أصبحت وحيدة أبوها مات فى حادث القطار الأخير . وأمها ماتت فى طائرة الحجاز . ولا أجد لى صديقا فى هذه الدنيا . وإن كنت فى بعض الأحيان أرى أن صداقتى صعبه . . من الذى أو التى تستطيع أن

تصادق رمزا باقيا لعدد من الموتى الأبرياء : أبى وأمى وأختى . .
أعذرنى ياسيدى أن قلبك الطيب هو الذى دفعنى إلى أن ألقى بنفسى عليك . . وأن أطلب من الله على يديك أن يهدينى إلى صراط مستقيم . ولا تؤاخذنى إذا لم أترك عنوانى . فانما أردت أن تختار لى أنت من ترى من صديقة أو صديق .

من المخلصة — شعاع . . .

لا أحد قلبه طيب فى هذه الدنيا . . ومن المستحيل . . أن يمسك الإنسان قلما ويكون طيب القلب . . أعرفهم هؤلاء الكتاب . أنهم يأكلون بعضهم البعض كالوحوش باسم الموضوعية فى النقد : العقاد ومصطفى الرافعى . . سارتر والبير كامى . . جرير والفرزدق وينهشون لحوم الموتى ، باسم الصدق . . ويمزقون أثواب الفضيلة بأسم البحث عن الحقيقة — ومن الغريب أن الحقيقة لا توجد إلا فى أحضان الأجسام العارية . كذب . . كلهم كذابون . . وسوف يبرم رئيس التحرير شواربه . . وإن لم تكن له شوارب فسوف يبلع ريقه .. وينشر الخطاب طبعا وبذلك يضمن رصيدا من هنا ومن هناك . . فالخطاب شبكة ينصبها وينتظر . . فلينتظر . وسوف أنتظر أنا أيضا . . فلينتظروا جميعا . . أن الشر قد صحا فى كل خلية من خلاياى . . فوداعا أيتها النية الحسنة . . وأيتها البراءة الخادعة . . وداعا أيها المغفلون . أقصد الأصدقاء !

وأنا ابتداء من هذه اللحظة اسمى : الآنسة شعاع . . شعاع مضئ فاضح . . إنه شعاع موت !

(٦)

أيام أخرى تمضى . ولكنى أصبحت إنساناً آخر .

فى داخلى إنسان آخر . . الخطوة قصيرة متزنة . رفعت عينى عن نفسى . . رفعت رقابتى عن كل تصرفاتى . . وفى يدى خطاب للسيد رئيس التحرير اطلب إليه أن يسلم الخطابات التى جاءت إلى المجلة لحامل هذا الخطاب . والإمضاء : شعاع :

وذهبت إلى المجلة . وسألت عن رئيس التحرير . وأعطيته الخطاب وفتحه وعلى وجهه شئ من اليأس ، والقرف والفشل . لابد أنه كان يتوقع أن تجئ شعاع نفسها للقائه ويبدو أنه عندما اخرج خطابى من بين الدوسيهات التى أمامه ، أراد أن يقارن بين خطى فى الخطاب الأول ، وخطى فى هذا الخطاب .

وطلب إلى أن أجلس . وجلست ودخل أحد السعاة وقال له :
هات الجوابات التى وردت للست شعاع .
أنا أسمى « الست شعاع » . . .

وعاد الساعى ومعه كيس كبير ملئ بالخطابات . وسلمها لى .

وانشغل عنى وقلت فى نفسى : لايهم . . أقوم أنا .
وقمت وفى يدى ضحاياى . .

سوف ترون ياكلاب . . لأنى فتاة فقط عرفتم الرحمة والرقة وسوف تبدأ خطاباتكم كلها بمثل هذه الكلمات : ويا عزيزتى ويا حبيبة قلبى . . ويا نور عينى . . وحياة قلبى . . لأنى شعاع . . ولو عرفتم أن اسمى هو شعبان رمضان ، لاأريد أن أتخيل ما كان من الممكن أن يعملوه ، فأنا أعرفه . . أعيشه . . لأننى شعاع .. ولأن شعاع أرسلت جارها يجمع خطاباتها يا سيادة رئيس التحرير . المهم أننى أخذت الخطابات وتمنيت لو فتحتها على الرصيف . . ولكنى تماسكت . . وصعدت سلم البيت ثلاثا ثلاثا . وتسللت إلى شقتى . وأقفلت الباب . ونزعت ملابسى . . ولاأدرى لماذا قررت أن أكون عاريا تماما . . لاأعرف إن كان قريبى الذى أشبهه كان يفعل ذلك . سمعت أنه فعل ذلك مرة عندما قرر أن يستلو على إحدى السفن فى البحر الصغير بالمنصورة . . نزع ملابسه كلها ودهن جسمه بالشحم . . تماما كالذين يعبرون المانش . وبذلك يضمن أن أحدا لن يمسكه .

وخلعت ملابسى كلها . وتربعت على السرير . . ووجدت الخطابات من كل الألوان والأحجام . من بحرى وقبلى . . والخطوط أنيقة . دقيقة . فكل واحد منهم يريد أن يوقعنى فى

غرامه من أول سطر . ذئاب . كلاب . ثعالب . . كل هذا لأنني شعاع ياجياع . .

أول واحد يقول : روح قلبي . . اسمعى أغنية شاديه التى تقول : يا أسمرانى اللون . . وتذكرينى يا شعاع . .

والثانى يقول : عمرك أطول من عمرى يا شعاع . . كنت أتمنى أن أجد النصف الآخر لقلبي ولوحدتى وأنت نصفى الآخر ..

والثالث يقول : لو كنت أستطيع أن أجمع لك حرارة الأقصر لاحرقت الخطاب.. . بل لاحرقت الناس من الأقصر إلى القاهرة حريقة تأكل الجميع ولايبقى فى الدنيا كلها إلا أنا وأنت ياشعاع !

وخامس وسادس .. . وسابع وعشرون بعد المائة . خطابات والعة نار وهيام وشوق وحنان إلى انسانة مجهولة أرسلت خطابا إلى مجلة . ونشره رئيس التحرير لأنه هو أيضا واحد من هؤلاء الذئاب. الطريق من أوله لآخره يبدأ بالكلاب وينتهى بالذئاب . . طريق أعرفه . . مشيت فيه ولم أكن أعرفه . . والآن عرفته دون أن أمشى فيه . .

وإذا نظر ساعى البريد إلى اسم المرسل إليها ، ولم يفهم ماهى الحكاية فهو لايختلف كثيرا عن أى أحد فى هذه المجلة . . ولكنى وحدى الذى أعرف السبب . .

والآن يبدأ البرنامج . .

سأكتب إلى كل هؤلاء الرجال والشبان . إليهم جميعا . وسوف أعطيهم عنوان البيت . . الآنسة شعاع طرف الأستاذ شعبان رمضان . . إلى آخره .

كل هؤلاء لم يهتموا كثيرا بما أصاب الفتاة . أنهم يريدونها هي . أنهم يريدون أن يضحكوا وأن يتعانقوا على جثث أبويها . . وكان الناس يفعلون ذلك من أقدم العصور يرقصون ويسكرون في المقابر . على جثث الموتى . . أنهم يتحدون الموت أو يسخرون منه . . أو يريدون أن ينسوا أنهم أيضا ميتون غدا أو بعد غد . . . كل هؤلاء قد نسوا ما أصاب شعاع . . ولا يريدون شيئا غيرها . . ليجعلوها تنسى . . أو لينسوا بها . . كلهم ممثلون كذابون .

وسوف ألعب بهم — أقصد سوف تلعبين بهم يا شعاع — العبي كما يحلو لك . .

(٧)

الخطاب الأول : عزيزى رشوان حسن . كأنما أراد الله أن يعوضنى عن فقدان أخى . . فلك ملامحه تماما . حتى شاربك . . لو كنت أنت وهو تترددان على حلاق واحد ، لقلت أن الحلاق صاحب أسلوب واحد فى تصفيف الشعر . . ولكن أنت فى أسيوط ونحن فى القاهرة . . أن صورتك هى إحياء لذكرى أعز الناس . . مع دموع شعاع . .

الخطاب الثانى : أخى المحترم عبد الكريم بشندى . . إلى آخره . .

ولابد أن الأخ عبد الكريم هذا قد اندهش جدا كيف أننى لاحظت أن الكرافتة التى فى رقبته من ذلك الطراز القديم . . وأنى لذلك قد اخترته دون سائر المئات من القراء لأكون صديقة له . . ولابد أنه داخ تماما عندما قرأ هذه العبارة التى جاءت فى آخر خطاباتى له « أن خطابى هذا هو افتتاح للخط الدافىء بين قلبينا البعيدين . . ولعل الله أراد أن يجعلهما قريبين . وكم أنت كريم يا عبد الكريم لأنك أرسلت لى أكثر من صورة لك . ولكن هناك صورة واحدة لم تستطع الكاميرا أن تلتقطها : ابتسامتك الخجول التى تساوى كل مافى الدنيا من ذهب .

وكان وجهه كئيبا . وابتسامته تساوى وزنه ترابا وهبابا . .

الخطاب الثالث : أخى عبد الرحيم دكرورى . . كأن نافذة من الدفء قد انفتحت فى وجهى . وأحسست لأول مرة بالحنان فى هذه الدنيا الباردة . وإننى أقدس بساطتك . فأنت لم تشأ أن تستعير بدلة وكرافته وساعة وجزمة كما فعل غيرك ، وإنما أرسلت صورتك ، وهى فطرتك السليمة : الجلباب والطاقية والعصا . . بل إننى أكاد أرى سلسلة الساعة فوق الصديرى . . كم أنا سعيدة .. . . إذن هذا هو الشارب الذى يقف عليه الصقر . كنت أسمع عن ذلك ولم أره فى حياتى . ولاتصورت أنه سيكون من نصيبى . . أختك : شعاع !

آه لو كنت أراه وهو يقرأ هذا الخطاب !

والخطاب الرابع : أخى بهجت طلخان . . أنت الوحيد الذى شعرت أمامه بأننى واحدة من حريم السلطان . . كلك رجوله مخيفه. أن قوامك النحيل وعينيك الضيقتين وشفتيك الحادتين كأنهما فصلتا بسكين ، وعنقك الطويل . . كلها تخيفنى . . إننى انتسب إلى ذلك الطراز من النساء الذى يطلب الأمان فى ظل رجل مخيف .. أنت تخيفنى . . ولكن — الحمد لله — عندما نظرت إلى أصابعك فى الصورة لاحظت أن الأصابع متباعدة . وهذا يدل على أنك رجل كريم . . والكريم يبذل كل شىء من أجل المرأة التى يحبها .

إذن . . فأنت حارس شديد لكل ماعندك ، أو ما سيكون عندك من كنوز . . أختك شعاع !

أنا أعرف أن هذا الأخ سيدوخ . .

الخطاب الخامس : أخى الظريف كامل الألفى الشهير بكوكو .. صورتك حلوه قوى . وهذا يدهشنى إذ كيف أن شابا جميلا مثلك لايجد فتاة . . أنت أمل كل فتاة . بل كل فتاة تتمنى عداوتك . كراهيتك لها . لأن حبك لها مستحيل . . فالذين مثلك خلقهم الله لكى يكونوا معشوقين لاعاشقين . . وهذا يكفى . أدامك الله لكل فتاة تحبك . وما أسعد الفتاة التى تحبها .. كم أتمنى أن أراها . . لاأعرف ماهى المواهب العظيمة التى وهبها الله لها ، وحرمنى لقد حرمنى من كل شئ . . .

كتبت عشرين . . أربعين . . مائة خطاب إلى هؤلاء الذين أرسلوا خطابات طويلة وقصيرة وأرسلوا مئات الصور الملونة لهم.. لقد أحدثت رواجا تجاريا عند المصورين . . إنه رزقهم . أراد الله أن يرزقهم من حماقة أناس آخرين . . وهذا هو الجانب الخير الوحيد فى هذه الخطة الشريرة . .

(٨)

يبدو أن ينبوع السفالة فى أعماق بدأ يتفجر . . فقد لاحظت أنى أطلب من هؤلاء القراء بعض الهدايا بأساليب مختلفة . . وقد ندمت على ذلك فى كل يوم يجئ ساعى البريد ويسأل عن الست « شعاع » وأقول له : مريضة . . ويسلمنى بوليصة بريدية . ومن الضرورى أن أذهب لاستلام أقشة . . وبلح وحلاوة طحينية وحمص السيد البدوى ، وملوحة ومش وجبنة قديمة وجبنة دمياطى وشاى وبن . . ومن أعجب الأشياء التى تلقيتها «قفص دجاج» . . هذا تسلمته باليد . . ولا أتذكر أنى طلبته من أحد . . وليس من المعقول أن أطلب ذلك من أحد يسكن فى القاهرة . . ومعنى هذا أنى بدأت أنسى ماأقوله فأنا أقول كثيراً أو أكذب كثيرا . وذاكرتى تستطيع أن تحفظ ماتقوله شعاع لاناس فى الجنوب والشمال وفى الشرقية والغربية . وقررت أن أسد عيون سكان البيت الذين لاحظوا مجئ ساعى البريد كثيرا . وتزايد عدد الطرود والهدايا . ولم يستريحوا إلى أن شعاع هذه مريضة . وأن هذه الهدايا قد جاءتها من أقارب لها ، لم يسمعوا عن مرضها إلا أخيرا . . وأمام محاولاتهم لزيارة شعاع ، كنت أقول أنها فى أحد المستشفيات المتواضعة وأنها لاتريد من أحد أن يزورها . . ولابد أن الناس قد اختاروا لها أمراضا خبيثة تجعل اختفاءها ضروريا . .

وتحيرت أمام إصرار القراء أن أبعث لهم بصورتى ، أقصد بصورة شعاع . وقررت أن أذهب إلى سور الأزبكية وأبحث عن مجلة قديمة أو كتاب قديم وأقطع منه صورة وأبعث بعشرات منها إلى كل واحد من هؤلاء . . . وأعجبتنى الفكرة . . .

ولسبب غير واضح قررت أن أفتح الخطابات الجديدة التى وصلت من المجلة . . عشرات الخطابات . . أخذت من بينها واحدا . . المظروف أزرق معطر . الخط صغير . فتحت الخطاب الله أكبر . . أنها قارئة تناشدنى الصداقة . وتروى هى أيضا قصة عذاب ووحدة . وتقول أنها غلبانة ووحيدة ومسكينة . وتحدثنى عن أخ لها . وأن أخاها هذا قد عطف على حالتى . وأن أخاها مشغول بأمرى . وأنه يتمنى لو يستطيع أن يساعدنى فى أى شئ .

وهززت رأسى : أن هذا الخطاب مصيدة أخرى . . لابد أنه واحد آخر أكثر منى ذكاء . ولابد أنه هو سبقنى إلى اختيار صورة فتاة . أنه يريد أن يلعب بى . ولكنى عدلت عن هذه الفكرة . واسترحت إلى أن هذه الفتاة صادقة . ومعقول جدا أن تكون هناك فتاة تعطف على فتاة أخرى ، وأن يكون قد دار بينها وبين أخيها كلام بشأنى . ممكن جدا . وأنها تعرض صداقتها . مقبولة صداقتك يا أختى ومقبولة صورتك أيضا . وهى الصورة التى سأبعث بنسخة منها إلى كل أصحاب الشوارب — فى مصر من أولها لآخرها . وسوف

أضع على ظهر الصورة هذه الكلمات : مع قلب شجاع !

وكتبت خطابا إلى الآنسة صاحبة الصورة . واسمها : غادة . . أقول لها أى كلام . . وفى نفس الوقت أطلب إليها أن تكون قريبة منى . وألا تتخلى عنى . . وقلت لها : أريد أن أكون معك صريحة أكثر من أى انسان آخر . . وكان فى نيتى أن أصارحها بالحقيقة ولكنى ترددت . واكتفيت بأن قلت لها : أرجوك لاتكفى عن الكتابة فقد استرحت إليك من أول خطاب . . وأرجو ألا تكون هذه هى راحتى الأخيرة وخطابك الأخير . .

وجاء منها خطاب أطول . . وكانت سعادتى أكبر . ولكن الخطابات الأخرى تتوالى . وأنا فى حيرة ما الذى افعله أننى انفقت الكثير على الجوابات وطوابع البريد . . وسهرت ساعات طويلة أكتب لكل واحد على النحو الذى اعتاد عليه . . ويبدو أننى خلطت بين الأسماء والصفات ، فقد جاءت خطابات مذعورة لما حدث . . وفوجئت بأن واحدا منهم قال بكل صراحة : إنك تخدعيننى وغيرى . . لقد ضبطت خطابا لك أرسلته إلى واحد فى المنصورة تقولين له نفس الكلام ياكذابة يانصابة . . إن قلبى كان يعرف ذلك من البداية . . ولكنى كذبت نفسى . . والحمد لله قد انكشفت على حقيقتك — لقد كنت بسبيل أن أطلق زوجتى أم أولادى من أجلك يابنت الـ . . (وغيره . . وغيره . .)

أصبح كل همى الآن أن أنتظر خطابات « غادة » وأن أتفرغ للكتابة إليها . وأن أحدثها أنا أيضا عن أخى . . تماما كما تحدثنى عن أخيها . . ولاحظت أن غادة تبدى اهتماما شديدا بأخى هذا وأسعدنى ذلك . وقد رويت لها قصة حياتى وعذابى . وكيف جئت إلى القاهرة ولماذا ؟ وما الذى اشكو منه . . وكيف كفرت بالناس وكيف أننى فى حاجة إلى من يردنى إلى الإيمان . . وكيف أن أخى هذا قد خرج من جلده . . وأنه يريد أن يعود إلى صورته الطبيعية إلى هدوئه . . ورزانته وإيمانه بنفسه وبالناس وبالله . .

ولا يوجد أخ طبعا . . انما أنا أتحدث عن نفسى . . أنا شعبان رمضان .

(٩)

العفريت فى داخلى يستعجل النهاية .

قررت أن أنهى هذه المهزلة المرهقة نفسيا . وجسميا وماليا . . والتى عذبت ساعى البريد ودوخت سكان البيت الذين سمعتهم يقولون : إيه الحكاية . . الراجل ده جاسوس . . حكاية الثلاث ورقات . . لن نسمح بالمسخرة . . عندنا بنات !

مع أننى لم أفعل أى شىء . ولا وضعت أذنى لا على باب ، ولا على شباك . ولا مددت يدى لأحد . . وكل ماهناك أن الناس ليسوا فاهمين لما يحدث : والناس لايطيقون أن يروا ثم لايعرفون . مجرد حب استطلاع . . وإلا فالتهم لاأول لها ولاآخر . أولها

معروف هو أن أترك هذا البيت لو استطعت . وينتصر الناس بإخراجي من البيت . مع أنه لم تكن هناك معركة ، وإنما الناس يشعرون بتعب من هذا اللغز الثقيل .

وأمسكت القلم والورق . . وتركت الشرير الذى فى داخلى يكتب ويطلب إليهم جميعا الحضور . اخترت عشرين واحدا فقط . . هذا يكفى . وحتى لايكون حضورهم آليا ، وإنما لكى أمتع نفسى بالضحك عليهم لآخر مرة ، اشترطت على كل واحد منهم أن يرتدى ملابس خاصة . . ملابس تضحكنى . . واشترطت على بعضهم أن يترك لحيته أو شاربه . . أو يرتدى حذاء أبيض . . أو طربوشا طويلا .. أننى أريد أن أرى عددا من الممثلين جاءوا يبحثون عن مؤلف . . عن المؤلف الذى هو أنا . .

عزيزى حسن . . أخى حشمت . . الأخ الغالى متولى . . الأخ الكريم عبد التواب . . أعز الناس كوكو . كل شىء سوف ينتهى بعد سبعة أيام . . وما الذى سوف يحدث . . سأواجه الجميع وأقول لهم الحقيقة . . والحقيقة الفاضحة لهم ولى أيضا . هم أرادوا أن يعرفوا فتاة . وأنا أردت أن أعرف فتاة أيضا . . نحن كذابون بنفس الدرجة . ونحن ذئاب جميعا . هذه هى الحقيقة . وكان من الممكن أن يتلقى كل واحد هذه الصدمة على انفراد ويبلعها ويعود إلى بيته فاشلا مفضوحا . . ولكن الموجع ، أو الذى سوف يكون

موجعا ، أن يتواجد هؤلاء الذئاب . . أن يدخلوا الواحد بعد الآخر . . وكلهم فى دهشة . . وكلهم يتوهم أنه هو الوحيد . . إنه الحبيب الغالى . . هذه مشكلتهم . فليتعذبوا . . فليأكلوا بعضهم البعض بعيونهم ونظراتهم . إنهم ضحايا أنفسهم . . ضحاياهم . .

وفى لحظة واحدة أقول لهم الحقيقة . . وسوف يهربون من الكسوف . . لن يجرؤ واحد على أن يفتح فمه . . إنه مفضوح . . فالذى سيفتح فمه سيكون المغفل الأكبر . . ولا أحد يريد أن يكون المغفل الأكبر ، وإنما واحد بين الكثيرين من المغفلين .

وبعد ذلك استريح . . أنها صدمة توقظنى وتوقظهم . . ومن المؤكد أننى فى حاجة إليها . . ولا أعرف أن كانوا هم أيضا فى حاجة إلى صدمات نفسية . .

واسترحت أكثر عندما كتبت إلى « غادة » أقول لها أن أخى قد دعا كل الأصدقاء من القراء إلى حفلة شاى وتعارف . . ولا أعرف بالضبط ما الذى جعلنى أكتب لها بكل هذه الصراحة والصدق . ربما كانت حاجتى الشديدة إلى أن أجد انسانا افتح له نفسى ، وأعرضها على حقيقتها . . فهذه نقطة ضعف فى تكوينى النفسى . .

وكان موعد مجىء الأصدقاء . . الضحايا . . فى الساعة السابعة . . وقبل الساعة أحسست أن قلبي يدق ويوجعنى ، كأنه يعضنى من

داخلى . . كأنه العضو النادم الوحيد . . أو أنه الضمير يدفع بالدم البارد إلى كل جسمى . . ومن النافذة رأيت اناسا يحومون حول البيت .. أشكالهم غريبة .. رأيت الشوارب والطرابيش . . والملابس والجاكتات . . وكل واحد يروح ويجئ وينظر إلى البيت . . وينظر فى ساعته ويمسح العرق من جبهته . . ويمسح حذاءه . . ويشعل سيجارة . . وفى السابعة إلا خمس دقائق . . تزاحموا على الباب . . وتساءلوا إن كان هذا بيت الأخ شعبان رمضان . .

الاقدام تتخبط على السلالم . . وصوت الدجاج فى أيدى بعضهم . . سكان البيت قد اعتادوا على الغموض والسكوت أيضا. وتوالت الدقات على باب شقتى الصغيرة وفتحت الباب . . وسلمت وقلت : الآنسة شعاع سوف تحضر حالا . . اتفضلوا . . اتفضلو اتفضلوا . . . آسف . . أنتم تعرفون كل شئ . . الآنسة شعاع قد أخبرتكم بكل شئ . .

وكانت الشقة ضيقة ، فاقترح بعضهم فى ذهول ودهشة أن يقفوا خارج الشقة إلى أن تحضر . .

أما أشكالهم وألوانهم فعجيبة فكأنهم خرجوا من استديوهات والت ديزنى . . لم أكن اعتقد أن الانسان يبدو مضحكا عندما تكون له رغبة شديدة فى شئ . . عندما يكون كذابا . . كلهم كذابون . . كلهم ممثلون . . فاشلون . . هذا إذن الانسان

أبو « ريالة » . . . هذا إذن الإنسان الذى يستحق العقاب .أقصى وأقصى العقاب وسوف أكون جلادا للجميع .

وقررت أن آتى بسكين من الداخل . . أن روح قريبى الذى أعدموه قد لبستنى . . ولن استخدم السكين فى شىء ، وإنما فى الدفاع عن نفسى . . سأكون مثل تمثال العدالة . . امسك السكين فى يد وفى اليد الأخرى امسك خطاباتهم .

وفجأة دخلت إلى غرفة النوم . . وأتيت بسكين ، وفى نفس الوقت تعالت الأصوات خارج الشقة . . وأقبلوا على فتاة : أهلا ست شعاع . . يا مرحب . . يا ألف نهار أبيض . . اللهم صلى على النبى . . أهلا ست شعاع . .

وخرجت من الغرفة . . ووجدت غادة . . أنهم ينادونها بشعاع . وهنا تذكرت أننى أرسلت صورتها إليهم جميعا . ولابد أنها هى قد استنتجت ذلك . . واقتربت منى . وأنا أكثر دهشة وذهولا منهم وأكثر خجلا .

وألقيت بالسكين إلى داخل الشقة ووراءها الخطابات وتمنيت أن ألقى بنفسى من السطوح . .

وفى هدوء طلبت غادة إلى الجميع أن يجلسوا . ولاأعرف بالضبط ما الذى قالته لهم . ولكنى سمعتها تقول : أننى أشكركم

فقد ملأتم وحدتى . ورددتم لى إيمانى بالناس وبالله . ولاأعرف كيف أشكركم . ولكنى مضطرة إلى أن ألجأ إلى أسلوب قديم . فقد كتبت أسماءكم جميعا هنا . . كل اسم على ورقة . وأطلب إلى واحد منكم أن يمد يده ويختار . والذى سيقع الاختيار عليه هو الانسان الذى اختاره الله لى . . لاأعرف بالضبط ماذا حدث . . حاولت أن أفهم . أن أسألها . . أننى أيضا لاأعرف إلا صورتها . وألا خطاباتها . ولاأعرف كيف جاءت . . ولكنها مع ذلك حلوة . .

أن هذه النهاية مفاجئة لى أنا صاحب هذا العرض المسرحى .

واقترب واحد منهم . . ومد يده إلى الأوراق التى فى يدها ، والتى وضعتها فى منديل . . واختار ورقة وقرأ الاسم :

شعبان رمضان . .

وتساءلوا أين هو ؟

وأشارت بيدها ناحيتى . .

ثم عادت فى هدوء وطلبت اجراء القرعة مرة أخرى .

وتقدم واحد آخر ومد يده وأخرج ورقة . . وقرأ : شعبان رمضان . . وقالت غادة وقد أحنت رأسها ! وهى تعتذر للجميع واحدا واحدا : أنها إذن أرادة الله . . يا أصدقائى أن يحرمنى من

الشخص الذى تمنيته . . ونظرت إلى وجوههم باستسلام غريب . .

وأشارت بيدها كأنها ممثلة محترفة إلى العشرين صديقا أن يهبطوا السلم . . نزلوا . .

وسقطت على الأرض خجلا . .

وتبددت غادة . . ولا أعرف أين ذهبت . وكانت أتعس ليلة فى حياتى .

(١٠)

ونحن جالسان على النيل سألت غادة : لابد أن أعرف .

وقالت : أنك منذ عشر دقائق وأنت تكرر هذا السؤال . تريد أن تعرف . . ما الذى تريد أن تعرفه . . أنا قلت لك أننى عرفت كل شىء عنك . . فعندما تلقيت منك أول خطاب ، جئت إلى هذه المنطقة وعرفت البيت . وسألت . . انتهت كل معلوماتى . . استرحت ؟

قلت لها : يعنى أنت تعرفين كل شىء . .

ــ طبعا . عندماعرفت أنك سوف تدعو كل هؤلاء أدركت أنها صورة جديدة من مذبحة المماليك فى القلعة . . وأنهم من الممكن أن يقتلوك ولو كنت رجلا لفعلت ذلك . . ولما رأونى . .

— آه . . آسف . . لقد عرفوك . . لانى أرسلت إليك صورتك آسف جدا . . .

— لا داعي للأسف . .

— والآن ؟

— ما رأيك أنت ؟

— رأيي هو رأيك . .

ونهضنا واقتربنا . . أكثر وأكثر . . وكان هذا الاقتراب نهاية للوحدة المريرة التى عشتها . . أما الباقى فمن السهل أن تخمنه . . وهو بالضبط مالم يخطر على بالك . . أو على بال !

فقد همست فى أذنى بأنها قررت الزواج ، وكنت سعيد للغاية .. أن يجىء الزواج بعد مؤامرة عليها . . وتذكرت أن النبيذ الرائع الألوان هو من عنب فاسد !

(١١)

أما الرجل الذى تزوجته فأحد الذين جاءوا وكان يرتدى جلبابا وطاقية . لماذا ؟ قالت أنها تفضل الرجل الذى يتنكر فى ملابس رجل . . على الرجل الذى يتنكر فى مأساة فتاة ! !

عند هذه النهاية من حقك أن تقول عنى أى شىء . . أسهل لك أن تردد ما قاله أصدقائى ! .

الخواجة مخالى غريبًا (١)

أقدم لك الشخصية الأولى فى هذه الرواية . .

إنه يونانى اسمه غريب : ارنولف ارخيلوس . . ولصعوبة هذا الاسم نكتفى بأن نطلق عليه اسم ارنولف . . أو مخالى ـ مثلا . وهو انسان طيب جدا لايشرب الخمر . يشرب اللبن فقط . ومسيحى متدين جدا . وله مثل عليا معروفة . هو نفسه يقدمها لك بعد لحظات من الجلوس إليه . .

وهو يتناول طعامه فى أحد البارات الصغيرة وصاحبة البار قد عرفته وجلست إليه . ولم تخف دهشتها فى كل مرة تراه أو تطلب إليه أن يتحدث إليها . فصاحبة البار أسمها : السيدة بيلر . . وزوجها اسمه اوجست وهو يدعى أنه أحد أبطال العالم فى ركوب الدراجات وإنه فاز فى بطولة الدراجات حول سويسرا . وكاد يفوز فى بطولة الدراجات حول فرنسا . وهو يرتدى دائما ملابس أبطال الدراجات

وفى يوم سأل زوجته : ما رأيك فى هذا اليونانى . إنه لايشرب إلا اللبن .

وترد زوجته: وأنت فى يوم من الأيام لم تكن تشرب إلا اللبن.

---

(١) مقتبسة

ويقول : هذا صحيح ولكن كان ذلك فى فترة التدريب للبطولة . ولكن هذا الرجل أيضا لايقرب النساء مع أنه فى الخامسة والأربعين .

ولكن مخالى هذا ثابت . كأنه قد استقر فوق شيء ثابت أيضا . له مبادئ لايتزحزح عنها . وله مثل عليا . . مرتبة الواحدة بعد الأخرى . فهو يرى أن رئيس الدولة هو أعظم انسان فى العالم لأنه لايدخن ولايشرب الخمر . وهو ينظر إلى صورته الموضوعة فى البار ومن تحتها زجاجات الخمر ، على أنه ملك فوق عرش يحتقره . وهو أرمل من ثلاثين سنة . ولم يتزوج ولم ينجب أولادا وهذا واضح فى كل ماتنشره الصحف عنه .

وتقول له صاحبة البار : يجب ألا تصدق ماتقوله الصحف .

ويقول لها مخالى : ولكن الفضيلة تبدو مشرقة على وجهه . فالفضيلة تظهر على الوجه تماما كما تظهر على وجه كبير الأساقفة . وهو الرجل الثانى فى مثلى العليا . .

وترد عليه السيدة بيلر : ولكن هذا القسيس ضخم الجثة . ولايمكن أن تكون هذه الضخامة بسبب الفضيلة .

ويقول مخالى : كان من الممكن أن يكون أضخم لو لم يكن فاضلا زاهدا فى الحياة .

ولكن إيمان مخالى لايتزعزع فى هذه المثل العليا .

وعندما نظر إلى الحائط فوجد صورة لرجل منكوش الشعر والشارب قال لها : ماكان يجب أن تعلقى صورة هذا الشيوعى ثم أنه قد خرج من السجن أخيرا . أنه إنسان مغرور .

وردت عليه : ليس مغرورا . ولكنه محب للجماهير . . وعليك أن تتحفظ قليلا عندما تتحدث عن آرائك السياسية .

أما كيف جاء مخالى إلى هذا المطعم فقد حدث ذلك منذ شهر . لقد دخل إلى صاحبة المطعم وقدم لها نفسه وقال لها أنه رجل منظم ورجل متدين وأنه يحب رئيس الدولة ويرى أنه أعظم رجل فى العالم . وأنه عندما رأى صورته على الحائط استراح إلى هذا البار وقرر أن يأكل فيه دائماً وهذه الصورة فوق رأسه . ووافقت صاحبة البار . .

وطلب إليها أن تسمح له بوضع صورة كبير الاساقفة إلى جوار رئيس الدولة . . ووافقت . . وفى كل مرة يسألها الناس عن صاحب هذه الصورة فيكون ردها أنه أحد القديسين الذين يرعون راكبى الدراجات . ومعظم المترددين على البار من هواة ركوب الدراجات :

وبعد أسبوع رجع مخالى ومعه صورة ثالثة وطلب إليها أن تعلق

هذه الصورة . ولما سألته أجاب بأنها صورة صاحب المصنع الذى يعمل فيه . ولما قالت له : كيف تضع صورة مثل هذا الرجل . أن مصانعه تنتج المدافع الذرية .

وكان رد مخالى : هذا صحيح . ولكنك نسيت أولا أنه صاحب المصنع الذى أعمل فيه . وثانيا أن مصانعه تنتج أدوات الولادة . وهى جميعا منتجات انسانية . .

أما الرجل الثالث بين مثله العليا فهو المحامى ديتور والرابع هو الرسام باساب . والرجل الخامس هو السفير الأمريكى . والرجل السادس هو الأثرى الانجليزى ويمان . . . الخ .

وفى مرة جلست إليه السيدة بيلر وقالت له اسمع : يامخالى . . أنت يجب أن تتزوج . . فأنت فى حاجة إلى من يعنى بك .

وقال لها : عنايتك تكفى .

فضحكت فى سخرية لتقول : بل أنت فى حاجة إلى عناية من نوع آخر .

فسألها : لم أفهم .

فقالت : عناية من نوع آخر . . فى حاجة إلى الدفء إلى الحنان.. إلى عناية خاصة جداً .

واتفق مخالى معها على أن ينشر اعلانا فى الصحف عن رغبته فى الزواج . كأن يكون الإعلان هكذا : يونانى عمره ٤٥ سنة يريد الزواج من يونانية .

وكانت تقول : لاتقل لى أبدا أنك يونانى . . فملامحك غريبة عن اليونانيين .

وكان يقول لها : أننى اختلف كثيراً عن صورة الرجل الاغريقى كما تصوره الصحف والفنانون . . ولكن أجدادى جاءوا إلى سويسرا وعاشوا فيها من أربعة قرون . .

وبعد يومين تلقى ردا فى خطاب أزرق أنيق صغير . وكان الخطاب من فتاة يونانية اسمها : كلوى . . هى أيضا يونانية وتوافق على الزواج منه لأنها تريد رجلا يونانيا يفهمها . .

وبعث إليها بخطاب وحدد لها المكان وقال لها أنه سيضع وردة حمراء فى الجاكتة .

وذهب إلى البار . وقابلته السيدة صاحبة البار وسألته :

تريد كوبا من اللبن . فقال على الفور : وحياتك أريد كوبا كبيراً

وسألته إن كان قد حدث له شئ . فأجاب بأن شيئاً لم يحدث .

وجلس تحت الصور التى يحبها . وفى نفس المكان . وبدأ يمسح منظاره الغليظ عندما ظهرت فتاة جميلة جداً . طويلة بيضاء . ثوبها أنيق . ترتدى فراء ثمينا . واقتربت منه وقالت له : أنا كلوى . .

وعندما نهض سقط كوب اللبن على المنضدة . وسقطت قطرات اللبن على منظاره الغليظ . ومد لها يدا مرتجفة وامتلأت الدنيا بينهما بالضباب ولم يرها بوضوح . ولكنها أخذت منظاره وجففته ثم أشارت إليه إن كان فى الامكان أن تشرب أيضا كوبا من اللبن . .

وليس واضحا مادار بينهما من كلام . ولكنهما خرجا من البار متجاورين والمطر ينزل فوقهما بغزارة . وتلفتت السيدة بيلر إلى زوجها : أن هذه الفتاة أنيقة . . وملابسها تدل على أنها تعمل فى الليل . . وأن أصدقاءها من أصحاب الملايين . .

وفى الطريق مالت كلوى على مخالى وقالت له : لم أكن أتصور أنك ظريف إلى هذه الدرجة . .

وتشاء الصدفة أن يرى فى الطريق رئيس الدولة فى سيارته الفخمة . وإذا برئيس الدولة يفتح زجاج سيارته ويحييه بوضوح . .

واندهش مخالى وقال : لم أكن أتصور أن رئيس الدولة يهتم

نى إلى هذه الدرجة . أنه انسان عظيم . إن تحيته كانت لى . وهذا واضح .

وعندما سار الإثنان بالقرب من قصر الرياسة . ووقفا عند إشارة المرور ، انفتح زجاج سيارة أخرى وارتفعت يد صاحب المصنع يحيي مخالى شخصيا .

أنه لايصدق ماترى . الإثنان فى يوم واحد . إثنان من مثله العليا . هذا كثير .

وعندما مر الاثنان باحدى الحدائق . وجد انسانا ثالثا يقترب منه ويصافحه وفوجئ بأن الذى يصافحه هذا هو الرسام العظيم : باساب . .

وبعد ذلك جاء السفير الأمريكى وحياه . .

إنه واحد من مثله العليا . .

حتى مدير الجامعة قابله فى أحد الميادين وصافحه .

أن رأس مخالى يكاد يتحطم . لقد حدث هذا كله فى يوم واحد. فى ليلة واحدة . وربما فى ساعة واحدة .

وصارحها مخالى بأنه يريد بعد أن يتم الزواج أن يفكرا جديا فى السفر إلى اليونان . وأنه قد فكر فى هذا الأمر ، فوجد أنه لم

يتمكن من هذه الرحلة إلا بعد عشرين عاما . ومخالى يعمل أمينا مساعدا للمكتبة فى مصانع المدافع الذرية . . وكلوى خطيبته تعمل خادمة فى بيت اثنين من المشتغلين بالآثار من الانجليز . وأنها يتيمة . وأن هذه الأسرة الانجليزية قد التقطتها وربتها . واعترف لها مخالى بأنه أيضا يتيم . وأن الحظ قد جمع الإثنين معا .

وعندما عاد إلى عمله فى الصباح فوجىء بشىء غريب . فوجىء بأن أمين المكتبة يريد مقابلته شخصيا . وهذا شىء نادر الحدوث . وقابله أمين المكتبة وقال له : أن مدير الفرع يريد أن يراه . وأن هذا نادر الحديث . وعندما ذهب لمقابلة مدير الفرع صارحه هذا المدير بأن : هذا أسعد يوم فى حياتى . فالسيد المدير العام يريد أن يقابلك فورا .

وذهب معه إلى الأدوار العليا من إدارة المصنع . ورأى الأبواب الزجاجية والسجاجيد الفاخرة والمصابيح الحمراء والخضراء ورأى فتيات السكرتارية الرشيقات الجميلات . والابتسامات جاهزة على كل وجه . والإنحناءات سخية يابانية هنا وهناك .

وانفتحت له الأبواب وأقفلت وراءه الأبواب ، ولاحظ أن الكلام همس . والسلام لمس . حتى السعال مكتوم . واستقبله المدير العام عند الباب وقال له : هذا أسعد يوم فى حياتى . أننا

جميعا قد راقبناك من وقت طويل . أعمالك الباهرة ونشاطك الواضح فأنت المسئول عن زيادة المبيعات فى أمريكا .

وكان رد مخالى الذاهل : ولكنى أعمل فى تنشيط المبيعات فى الريف فقط . .

وكان رد المدير العام : هذا صحيح . ولكن لابد أن الذين عملوا فى تنشيط المبيعات فى أمريكا قد ترسموا خطاك . على كل حال لاداعى للتواضع . وأنا يسعدنى أن أذهب معك إلى باب السيد صاحب المصنع فهو فى انتظارك منذ أكثر من ١٢ دقيقة . . تصور . لقد تكرم وتفضل وحدثنى مباشرة من غير مدير مكتبة ولاسكرتير المدير . . هو شخصيا . تصور . وهذا لم يحدث فى تاريخ هذه الشركة منذ انشائها . .

وفى ذهول واضح اتجه المدير العام مع مخالى إلى الدور العلوى من هذه المصانع . . الدور الذى يعمل فيه صاحب المصانع . . وتكررت نفس المناظر . . السكرتيرات الحسناوات والأزرار والمصابيح الحمراء والخضراء . . وأصوات غير مألوفة . . ووجوه كأنها لأجناس بشرية غير معروفة . . ثم مكتب صاحب المصنع

وعندما انفتح الباب اختفى المدير العام، لأنه لايستطيع أن يدخل صاحب الشركة ، فالتعليمات أن يقف عند الباب . . ودخل مخالى..

ورأى صاحب المصانع . . أنه أحد مثله العليا فى الحياة العصامية والنشأة التاريخية العريقة .

وامتدت يد صاحب المصانع ليقول لمخالى : اسمع يا ساكيريس..

فرد مخالى فى خجل وحرج : اسمى مخالى . .

ومدير المصانع يقول بسرعة : لايهم أن يكون اسمك أى شىء.. اسمع . . أنا معجب بجهودك ! العظيمة فى ترويج صناعة المدافع . .

ويرد مخالى . . إننى اشتغل ياسيدى فى المكتبة . . مساعدا لأمين المكتبة . .

ويعود صاحب المصانع يقول له : أعرف ذلك يا انكسوغراس. أعرف ذلك . والجميع معجبون بك . . ولذلك قررت ترقيتك . . أنت من الآن مدير لفرع الأدوات الطبية . .

ويرد مخالى : ولكنى ياسيدى لاأفهم فى . .

ويقول صاحب المصانع وهو يتجول فى مكتبه الكبير الطويل العريض الفاخر : ومن الذى يفهم . أن هؤلاء المديرين لايفهمون شيئا . . على كل حال أنت الآن مدير عام . . من هذه اللحظة مدير عام . . تعال وأنظر لترى النهر والمدينة كلها من هذه النافذة . . وهذه الكاتدرائية . . وهنا قصر الرياسة . . وهناك وزارة الاقتصاد . . المنظر جميل . .

وفى دوخة غريبة عميقة يقول مخالى : منظر جميل وشىء غريب ..

ويقدم صاحب المصانع لمخالى سيجارة فيقول له أنه لايدخن . . ويقدم له كأسا من الشمبانيا فيعتذر بأنه لايشرب .

وتنتهى المقابلة ويعلن صاحب المصانع لمخالى أنه يجب أن يذهب إلى شباك الخزانة قبل أن يعود إلى بيته فهناك شيك لمرتب سنة مقدما.

ويخرج مخالى . . وتتكرر الإنحناءات والهمسات والتحيات والمصاعد التى تنفتح وتنقفل . ومن باب إلى باب ومن دور إلى دور الخزانة ويقبض الشيك . ويعود مخالى لأحلامه بأن يسافر مع خطيبته إلى اليونان فى الدرجة الأولى على ظهر الباخرة جوليا .

ويمضى شهر العسل هناك . .

وتدور فى أذنه كلمات صاحب المصانع : أنت رجل من الشعب . وأنا رفعتك من تحت إلى فوق تحقيقا للاشتراكية الايجابية .

ونزل مخالى وركب التاكسى لأول مرة فى حياته . وبدأ عليه الوجوم والشحوب . أنه مرهق مكدود ومهدود . مفكك دائخ تائه . لايعرف كيف ارتفع فجأة من أعماق الأرض إلى السماء : يجد العروسة ويقابل كل مثله العليا فى يوم واحد ويتحول من مساعد أمين مكتبة مجهولة إلى مدير عام لقسم المدافع الذرية وأدوات الولادة .

ويقف التاكسى أمام البار . .

وتراه صاحبة البار وتسأله عن الذى أصابه . . هل هو أمضى ليلة حمراء مع فتاة جميلة . . يجوز . . ولكنه لايشرب ولايعرف الليل بعد التاسعة مساء . ولايعرف النساء . ثم إنه ليس مريضا . ولامصابا . ولامفصولا من عمله . إنه قد ارتفع فجأة إلى طبقات الجو العليا فى ملابس غير مكيفة بالهواء والضغط . كيف ؟ إنه لايفهم ؟

وتسأله صاحبة البار : ولكن لماذا جعلك مديرا عاما ؟

— تطبيقا للاشتراكية الايجابية .

— وماذا فعلت مع الفتاة اليونانية ؟

— خطبتها . .

— معقول جداً . وماذا تعمل هى ؟

— خادمة .

— وتملك هذا الفراء الثمين ؟

— إنها مدبرة جداً .

وفى الطرقات ينحنى الناس لتحيته . . ويصافحونه بحرارة . وهو فى ذهول ويصافح ويرد التحية .

ويتجه إلى أحد مكاتب السياحة . ويراه مندوب السياحة فيقول له : لاتوجد عندنا أماكن . . الباخرة قد امتلأت .

وبعد أن يرجع مخالى إلى غرفته فوق السطوح يلتفت مندوب السياحة إلى زبون جديد ويقول له : هل تتصور أن رجلا يونانيا جاء إلى هنا يحجز تذكرتين فى الدرجة الأولى إلى اليونان . . ملابسه قذرة وشكله حقير . عنده فلوس . . وهذا هو أحد عيوب الرأسمالية . . فالذين عندهم الفلوس بهائم لايعرفون الذوق فى الكلام أو فى اللبس . .

وركب التاكسى مرة أخرى . وطلب إلى السائق أن يذهب إلى أحسن ترزى وأحسن حلاق وأحسن محل أحذية .

وذهب إلى هذه الأماكن واشترى أشيك الملابس . وعاد إلى شركة السياحة مرة أخرى . ووجد نفس الموظف . ولكن عندما رآه بمظهره الأنيق وقبعته العالية ولهجته الجادة وأنه مدير عام « قسم المدافع الذرية وأدوات الولادة » حجز له تذكرتين فى الكابينة المجاورة لصوفيا لورين والأميرة مرجريت .

وعندما عاد إلى بيته وجد أخاه وأولاده . . لقد حاولوا سرقة إحدى السفارات فلم يفلحوا ولذلك هم فى حاجة سريعة إلى المال . . وأعطاهم .

أما كبير الأساقفة فقد اتصل بمخالى وحدد له موعدا . وطلب إليه أن يكون مستشارا لمجلس الكنائس . وقال له : لقد لاحظت

انتظامك فى الصلاة وحبك للخير . واضرابك عن التدخين والخمور والتزامك للفضيلة . ولايهمنى أبدا كيف أصبحت مديرا عاما . فالناس فى غمضة عين يصبحون مديرين هكذا . . وأنت الآن تستطيع أن تخدم الكنيسة والمسيحية أكثر من أى وقت مضى . .

وقبل أن ينصرف مخالى ينبهه كبير الأساقفة إلى أن الجلسة القادمة لمجلس الكنائس سوف تكون فى استراليا .

ويقول مخالى لكبير الأساقفة : إننى شديد التعاسة كأننى فقدت كل شىء فى الدنيا ، مع أنى كسبت الكثير جدا . ولكننى حزين .. أشبه بالنبى أيوب الذى فقد الزوجة والبنات والصحة فى يوم واحد . وأنا وجدت الزوجة وقابلت كل مثلى العليا وأصبحت مديرا عاما ومستشارا لمجلس الكنائس كل هذا فى يوم واحد . . إننى حزين .

وقال كبير الأساقفة : الحزن ياولدى هو طبيعة الحياة . فأنت الآن إنسان طبيعى . وأنك ولاشك تستحق هذه البركات التى حلت عليك . . فاشكر الله ياولدى . .

وفى هذه الليلة قرر أن ينقل خطيبته من عملها ، ويقيما معا فى فندق هيلتون . . واحتجز غرفتين . . واحدة فى الدور الثالث لها . وواحدة فى الدور السادس له . حتى لايحرجها . . فهو الآن مستشار مجلس الكنائس . .

وأحس بصعوبة جديدة فملابسه الأنيقة جدا أصبحت مانعا له من أن يذهب إلى كثير من الأماكن التى كان يتردد عليها . . مثل البار القديم . . أن ملابسه ومظهره ومنصبه لاتتمشى كلها مع هذا البار المتواضع جداً .

وفى مدخل الفندق لاحظ معرضا فخما للوحات فنية كثيرة . . واقترب منها . . ونظر إلى إحدى اللوحات . . وقرأ عنوان الرسام وخرج من الفندق بسرعة . وركب التاكسى وطلب إليه أن يذهب إلى عنوان الرسام . . وفى « حوارى» كثيرة انطلق التاكسى ووقف أمام باب ضيق . وصعد الدرج المظلم وارتطم بالسقوف . ثم وقف أمام باب صغير وتسلل إلى داخله . ووقف وجها لوجه أمام الرسام . وسأله : من أنت ؟

فقال له مخالى : لقد سلمت على اليوم صباحا . . أنا مخالى .

— وماذا تريد ؟

— أنك رسمت خطيبتى عارية . . فأنا أريد هذه اللوحة بأى ثمن .

— تقصد لوحة فينوس ؟

— نعم . .

— وماذا يضايقك من هذا ؟

ـ إنها خطيبتى .

ـ أنها أجمل خلق الله . . لها أجمل صدر ـ وأروع ساقين . وأنعم عنق وأجمل وجه . . أن زواجك افساد لعمل إلهى عظيم . .

ـ وأنت تعرفها ؟

ـ لقد عملت موديلا عندى فترة طويلة . . أنها نعمة من نعم الله لن تدركها إلا بعد أن تتزوجها . . وبعد ذلك ستشوه أنت هذا الجمال عندما تحمل وتلد وترضع أطفالها . . إننى أريد أن أرسمك عاريا . . أخلع ملابسك . . أنت صورة لإله الحرب عند اليونان . . .

ـ أنا يونانى .

ـ إذن إله الحرب . . اخلع ملابسك . .

ـ الدنيا برد . .

ـ سأقرب لك المدفأة . . اخلع . .

ـ القميص . . ؟

ـ القميص والبنطلون . . اخلع كل ملابسك . . هذا الشعر الذى فى صدرك .

وبدأ يخلع ملابسه . .

ثم عاد الرسام يقول : أرجوك أن تقف كالملاكمين . . اجعل زاوية الانحناء ستين درجة . . هكذا . . ثم اركع على ركبتيك . . أنت الآن إله الحرب بعد المعركة .

وراح الرسام يقترب منه ويبتعد . . وبعد أن فرغ من اللوحة أعطاه تمثالا من السلك قد صنعه لخطيبته كلوى . . وقال له : هذا التمثال ضعه إلى جوار سريرها لتتذكر يوما ما أنها كانت جميلة . . وأنك أنت المسئول عن ضياع هذه التحفة الإلهية . . انزل فى ستين داهية .

واتجه بالتاكسى إلى حيث المحامى دتور وهو أحد مثله العليا . . فقد اتصل به وأخبره أنه سوف ينتظره لأمر هام . . وذهب للقاء المحامى الكبير وقابله المحامى مادا يديه : سيدى مخالى المدير العام أننى فى انتظارك . . تفضل ياسيدى وقع بامضائك على هذا العقد .

وسأله مخالى : أى عقد ؟

وقال المحامى : هذا العقد . . أن أصحاب هذا البيت يتنازلون لك عنه وهو هدية منهم بمناسبة زواجك السعيد . . وقع هنا . .

وتساءل مخالى : ومن هم أصحاب البيت ؟

وقال المحامى : إنه عالم الآثار الانجليزى وزوجته . وهذا البيت هدية لك بمناسبة الزواج . .

ووقع مخالى على عقد البيع . .

وانصرف المحامى . . وترك مخالى فى القصر الهائل . . الأبواب والنوافذ والسجاجيد والمصابيح واللوحات على الحائط . . ولافتة على غرفة مكتوب عليها : مكتب مخالى . . وغرفة أخرى مكتوب عليها : غرفة نوم مخالى . . وغرفة نوم كلوى . .

وتسلل مخالى إلى غرفة نوم كلوى فوجدها ممدة فى الفراش . . ولم يكد يراها حتى قال لها : أنت تنامين فى سرير زوجة العالم الأثرى . . أنت مرهقة .

وكانت شبه عارية وقد وضعت المخدات على صدرها . . وعانقت المخدات واقتربت من مخالى . ولكنه لم يجرؤ على أن ينظر إلى جمالها بوضوح . .

وقبل أن ينصرف المحامى طلب إليه مخالى : أن يعد الأوراق الخاصة بزواجه .

وقال المحامى : أعددتها . .

— ومن الذى طلب إليك ذلك ؟

— خطيبتك .

— إننى أسعد إنسان فى العالم .

— ومن سيكون الشهود ؟

ـ هى اختارت عددا قليلا جداً من الناس . .

ـ والضيوف ؟

ـ لن يتجاوزوا المائتين .

ـ ومن الشهود . . ؟

ـ السفير الأمريكى ورئيس الدولة وربما الرسام الكبير .

ـ ولكنهم لايعرفون زوجتى . .

وهنا ابتسم المحامى وحنى رأسه : أظن أنهم جميعا يعرفونها . .

وعاد مخالى إلى غرفة نوم كلوى وسألها : ولكن لماذا أعطونا هذا القصر .

ـ يظهر أنها من التقاليد البريطانية أن يحولوا خادمة البيت إلى سيدته . . ثم إن لديهم قصورا كثيرة هناك .

ـ هل أخبرت هؤلاء الانجليز عن زواجنا ؟

ـ طبعا . . ولهذا أهدونا هذا القصر . .

ـ هل تعلمين أننى أصبحت مديرا عاما .

ـ أعرف .

ـ وإننى أصبحت مستشار مجلس الكنائس .

ـ أعرف .

— وأنني سوف أسافر إلى استراليا فى الصيف القادم .

— أعرف .

— ومن الذى أخبرك بهذا كله . .

— المدينة كلها تتحدث عن صعودك إلى أرقى الدرجات . .

— إننى لم أعد أشعر بنفسى . . أننى أصبحت إنسانا آخر . . لاأدرى من أنا . وأنا تعيس.. وقد قال لى كبير الأساقفة أن التعاسة شئ طبيعى وأنها فى طبيعة الانسان . وأن الحظ يلعب بنا يلعب بى كموظف صغير . ويلعب بك كخادمة صغيرة .

— لاتقلق يا عزيزى . . لقد انتظرتك طول الوقت . والآن أنت رشيق . . أنت أنيق . . اخلع ملابسك وتعال إلى جوارى .

واقتربت منه كلوى والعطر يفوح منها والدفء . . وأشياء كثيرة لايعرفها خالى . ولما اقتربت منه قال لها : ولكننى لم أشرح لك مبادئ الكنيسة .

وترك خطيبته تتمدد فى سريرها ، وذهب إلى خارج الغرفة وتمدد فى أحد المقاعد حتى الصباح .

وفى ساعة مبكرة صحا على صوت قريب منه . ووجد فتاة جميلة وسألها : من أنت ؟

قالت : أنا صوفى .

— وماذا تفعلين هنا ؟

— خادمة . . وأرجوك أن تنهض قبل أن يصحو أصحاب البيت .

— أنا صاحب البيت . . ومنذ متى تعملين هنا ؟

— منذ ستة شهور . . لقد اختارتنى سيدتى كلوى .

— من ستة شهور . .

وأحس أن هذه الفتاة قد أخطأت فى فهم الحقيقة . فلابد أن أصحاب البيت من الانجليز هم الذين اختاروها وقد ظنت بسذاجة أن كلوى هى التى عينتها .

ثم عاد يقول لها : ومتى تصحو سيدتك .

— فى التاسعة . .

— إذن أستطيع أن أراها .

— إنها تصحو فى التاسعة وسوف تلتقى بالخياطة فى التاسعة والنصف

— إذن أراها فى هذا الوقت .

— بل هذا موعدها مع التدليك .

— إذن بعد ذلك .

— ربما .

وتقدم رجل عجوز فى السبعين من عمره وانحنى وسأله مخالى : من أنت ؟

— السفرجى .

— منذ كم سنة تعمل هنا .

— منذ ١٠ سنوات .

— ومن الذى استأجرك هنا .

— إنها الآنسة كلوى .

وارتبك مخالى وأدرك أن هذا العجوز هو أيضا مخرف . فهو لايعرف أن هؤلاء الانجليز عندما عثروا على كلوى اليتيمة قد عاملوها على أنها ابنتهم . .

واقترب السفرجى من مخالى وقال له : ياسيدى فى العاشرة والنصف سوف يجىء مدير الجامعة ليمنحك الدكتوراه الفخرية لما بذلته من جهود عظيمة فى ترويج وتطوير أدوات الولادة . وفى الحادية عشرة يصل السفير الأمريكى يحمل خطابا شخصيا من الرئيس الأمريكى يهنئك بزواجك .

وفى المساء ذهب مخالى ومعه عروسه إلى الكنيسة وهناك اجتمع أرقى مافى المجتمع . . وكل المثل العليا وزيادة . وازدحم الناس فى الشوارع يتفرجون على العروسين وقد نزلا من سيارتهما الحمراء الفاخرة .

وفى الكنيسة تقدم كبير الأساقفة يلقى كلمة يبارك فيها هذا

الزواج ويتمنى للاثنين السعادة . . ويذكر أيضا الأعمال الجليلة التى سوف يقوم بها مخالى والتى ينتظرها المسيحيون على يديه . .

وعندما سأله كبير الأساقفة إن كان يقبل عروسه كلوى زوجة له . . صرخ مخالى وقال : لا .. إننى لا أتزوج عشيقة كل الموجودين فى الكنيسة . . عشيقة . . غانية . .

وانطلق إلى الشارع والناس يصرخون ويضحكون . . وتحت ستار الأمطار الشديدة أخذ مخالى يتوارى فى البيوت ووراء العربات . . واتجه إلى النهر وعلى الكبارى واحدا بعد واحد . .

والشحاذون يقولون له : ألق بنفسك . . فالحياة لاتساوى . . سوف تكون ثالث واحد اليوم . .

وفى ساعة متأخرة من الليل عاد إلى بيته وقد تغطت ملابسه بالوحل والمطر . وذهب إلى غرفته وراح يمزق كل مافى البيت.. اللوحات والملابس . . والبدل والفساتين ودخل إلى الغرفة المكتوب عليها « مكتب مخالى » ووقف على المنضدة . وقرر أن يشنق نفسه. وفى هذه اللحظة انفتح الباب ودخل الزعيم الشيوعى ومعه شخص آخر . والتفت مخالى إليه : وأنت أيضا كنت عشيق زوجتى .

فرد عليه : نعم . . ولهذا جئت أقدم لك هذه الهدية بمناسبة

زواجك السعيد . . ثم أقدم لك هذا الصديق . . إنه السكرتير الخاص لصاحب المصانع التى تعمل فيها . إنه يعمل معنا . .

وسأله مخالى : ماهذه ؟

فقال الزعيم الشيوعى : إنها العدالة .

وسأله مخالى : إنها قنبلة .

فقال الزعيم : نعم قنبلة . . وهذه فرصتك أن تنتقم من كل الناس . . اذهب بها إلى بيت رئيس الدولة واضربها فى غرفة نومه . . وقد رسمنا لك كل شئ . وعلى حائط القصر يوجد السلم . . ونحن نعرف الطريق إلى غرفة نومه فقد درسناها جيدا . هيا بنا لاتضيع الوقت . .

وفكر مخالى . . وتردد . . ثم عاد فقرر أنها فرصة لينتقم .

وركبوا السيارة جميعا إلى قصر الرياسة . .

وتسلل مخالى إلى داخل القصر . . وراح يبحث عن غرفة رئيس الدولة فلم يجده . وأخيرا صعد إلى الدور العلوى وأضيئت الأنوار فجأة فوجد نفسه أمامه وجها لوجه . وقال له الرئيس : رأيتك وأنت تتسلق السلالم . . أنى كثيرا مافعلت مثلك . وأنا أيضا مثلك أومن بأن هؤلاء الحراس مغفلون . . تعال ياصديقى العزيز . تعال . ماذا أقدم لك من شراب . . أنت لاتشرب ولكنها فرصة .

وقدم له كأسا من الشمبانيا . . ثم شرائح من اللحم . وقال له : زوجتك جميلة . ولابد أنك إنسان سعيد . .

وسأله مخالى : إن كان قد عرفها . .

فأجابه : طبعا . جمالها يستحيل أن يكون ملكا لشخص واحد . ولكنك استطعت أن تجعله لك . . لقد كان موقفك اليوم صعبا . إننى أقدر موقفك . لقد حضرنا جميعا لوداع انسان عزيز علينا . . وكان حفلا أليما علينا جميعا . .

وشعر مخالى بالدفء . .

وجاء الخادم الخاص للرئيس ونزع ملابس مخالى وراح ينفضها وكان مخالى قد وضع القنبلة اليدوية فى جيبه وخشى أن ينكشف أمره

ومع الدفء والشمبانيا والترحيب به والحديث إليه هدأ كل شيء فى نفسه . وبعد ذلك رافقه رئيس الدولة إلى الباب الخارجى . وودعه . .

وعاد مخالى إلى بيته فوجد أخاه نائما إلى جوار سيدة عارية . وفوجئ الأخ بمخالى . فصرخ فى وجهه : يجب أن تستأذن إذا دخلت غرفة النوم ، حتى لو كانت غرفتك . .

وجمع مخالى حقائبه وسافر إلى الميناء ليستقل الباخرة إلى اليونان ورست الباخرة فى اليونان . وهناك وجد الأسرة البريطانية

المشتغلة فى البحث عن الآثار الاغريقية القديمة . وقرر أن يشتغل بالآثار . . أن يشتغل بأى شىء فى بلاده وألا يعود إلى حيث كانت فضيحته ومأساته وهوانه .

وفى يوم كان يتمشى على الشاطىء . . فوجد فتاة مدفونة فى الرمال . . واقترب منها : لقد كانت خطيبته كلوى . .

فقال لها : ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

— وهل نسيت أنك حجزت لى تذكرة السفر إلى اليونان .

— نسيت . .

— أنت جئت فى الوقت المناسب . . أريد أن أشرح لك ماحدث . . عندما قرأت الاعلان فى الصحف قررت أن أهجر حياتى هذه وأن أتزوج وأعيش زوجة لرجل واحد . ولما كنت أنت يونانيا شعرت بالسعادة . . فأنا أحب اليونان . . وأريد أن أعيش يونانية . وحرصت أن ألقاك بملابسى الأنيقة لعلك تعرف حقيقتى . ولكنك لم تعرف . . ووجدتك تشرب اللبن . فقررت أن أشرب اللبن مثلك . ووجدتك لاتدخن فقررت ألا أدخن . وأحببتك من أول لحظة . . أحببت كل الذى لم أجده عند إنسان آخر . فأنت طيب وأنا لم أجد انسانا طيبا . . وإنما قررت أن أعيش لك . . وأعيش بك . . وأعيش معك فهل أنا مخطئة . .

ولم يجد مخالى ما يقوله . .

ولكن كلوى عادت تقول : لقد تركتك حتى انهارت كل مثلك العليا . . وكلها تمثل كاذبة . . أنا أعرفها أكثر منك . . انهارت هذه الأكاذيب . . ولم تبق إلا هذه الحقيقة . . حقيقتى وحقيقتك . . فهل تقبلنى زوجة لك .

واقترب منها مخالى وهو لايقوى على النظر إلى جمالها الذى غطته الرمال . . وقال فى أذنها : نعم . .

واقترب منها مخالى أكثر . واقتربت هى أكثر وأكثر . وقالت له : قلها مرة أخرى فى فمى . .

واقترب منها مخالى واتجه فمه إلى أذنيها : ولكنى لم أشرح لك بعد مبادىء الكنيسة .

هى .. وغيرها

كان من عاداته أن يصافح زوجته وابنه أمام باب البيت . . . يمد يده إلى الزوجة . . ثم ينحنى على ابنه الصغير يقبله . ولم يحدث أن فكرت الزوجة فى هذا الموقف المتكرر . ولكنها هذه المرة أحست أن كل شيء غريب كأنه يحدث لأول مرة فهو هذه المرة صافح الزوجة بشدة وهو عادة عندما يصافحها كأنه يعطيها يده ثم يتخلص من يدها بسرعة . . أما هذه المرة فهو يشد يدها . . ويشد ذراعها ويشد نفسه من الموقف كله . . ويقول لزوجته . أراك فى خير . .

ويقول لابنه : أراك فى خير . .

أما القبلة التى يضعها على خد ابنه فهى حلقة فى سلسلة من القبلات.. أنواع من القبلات بدأت من عشر سنوات يوم زواجه . كانت قبلته أول الأمر متأنية عميقة يختلط فيها الوجه بالصدر . . بالأنفاس بالعطور بالشوق باللهفة . . ويعانى كل منهما عذاب سفن الفضاء وهى تقتلع نفسها من جاذبية الأرض . . وبعد ذلك تباعدت المسافة بين الزوج وزوجته . . وأصبحت القبلة خاطفة . ثم مخطوفة. على الشفتين . . ثم على شفة واحدة . . وعلى الخد . . وعلى الجبهة..

وأكتفى بأن يقبل الهواء الذى بينه وبين زوجته . . أن القبلة التى يطبعها أو ينقشها على خد ابنه هى حطام هذا التاريخ . . وعلى الزوجة أن تضع شفتيها على بقايا شفتيه . . هناك على خد طفلهما . .

أن هذه الحالة التى وصل إليها الزوجان هى بقايا شىء طويل عريض معقد يمكن أن يقال عنه : أن القبلات لم تعد من علامات هذا الطريق فهما يلتقيان على خد الطفل . . أو حول الطفل . .

ويوم قال لهما لآخر مرة : أراكما فى خير ، لم يرهما بعد ذلك .. لافى خير ولافى شر . .

وكان المفروض أن يعود فى تلك الليلة متأخرا . فقد سافر من القاهرة إلى الأسكندرية لأمر هام وكل أموره هامة . وكلها عاجلة وكلها تتوقف على سرعته فى الخروج من البيت والبقاء فى البيت.. وتناول الطعام والكلام المختصر بينه وبين زوجته . . وأصبح هذا الشعور بضرورة السرعة مبررا لأشياء كثيرة . من بينها أن ينام مبكرا ليصحو مبكرا أيضا . . أن يأكل الطعام خطفا . أن ينصرف عن الكلام ليشتغل بما يدور فى رأسه والذى يدور فى رأسه هو نوع من استئناف الحوار بينه وبين نفسه . . أو بينه وبين المحامين.. فهو محام — وبين القضاة وبين العملاء . . وهذا الزحام الذى حوله

والذى يصنعه ويحرص عليه يحقق له هدفا هاما جداً وهو ألا يترك مكانا لزوجته فى حياته الواعية أو حياته التى تتهادى بين اليقظة والنوم . . أو بين البيت والمكتب وغرفة النوم . .

وذهب فى تلك الليلة ولم يعد . . وانزعجت الزوجة . وازعجت معها عددا من أقاربها وأصدقائه . إنه لم يعد . ليست هذه عادته . فقد كان يحرص على ألا يزعج زوجته أو طفله . وكثيرا ما تأخر فى طنطا وفى المنصورة وفى أسوان واتصل بزوجته يعتذر لها . وقد لاتهتم الزوجة بهذا الاعتذار . ولكنه يصر على الاعتذار كأنه يطبق أحد المبادىء الأخلاقية التى تقول : إذا وعدت فلا تخلف وعدك . . وإلا فاعتذر .

وكان يعتذر . . ولكنه هذه الليلة لااعتذر ، ولاعاد . .

وأبلغت الزوجة البوليس . وبدأ البحث عن الزوج الذى صافح الزوجة وقبل الابن وتمنى أن يراهما فى خير . .

وراحت أمنيته . . اختفت معه . . وليس فى استطاعة البوليس أن يعثر على الرجل ولاعلى أمانيه .

* * *

إنه الأستاذ سيف أمين المحامى وزوجته عنايات . . وقد أصبح من أشهر المحامين وأنجحهم .. وإذا اسمه تردد فمعناه البراعة ..البراعة

فى المحكمة ، والبراءة — بمعنى السذاجة — فى البيت — أو هذا هو تفسير زوجته . .

أما زوجته عنايات فهمى فهى سيدة مثقفة جميلة . وقد تزوج الاثنان عن حب . إنه من أسرة متوسطة . وهى من أسرة غنية . ولكن الفلوس لم تكن سببا . فهو يكسب الكثير . ولكنه لايهتم بالكثير أو القليل . وقصة حبهما بدأت بأن ترافع فى قضية لأحد أقاربها . وكانت البراءة احتمالا بعيدا . وحكمت له المحكمة .

ويوم احتفال قريبها هذا ببراءته ، رأى عنايات ، وبسرعة أعجبته وبسرعة قال لنفسه : هذه .

وكأن عنايات سمعت مايدور فى رأسه . . فاختفت عن عينه لتراه على حريتها فوقفت وراء أحد الأبواب . ورأت ملابسه . . الكرافتة والحذاء وأظافره وشعره . . وطريقته فى الأكل . . ثم اهتمامه بكل من يتحدث إليه ومداعبته لقطة صغيرة . . وكانت هذه الملاحظات كلها هى حيثيات الحكم .

وتداولت مع نفسها وأصدرت حكمها قائلة : هذا هو الرجل . .

وتم الزواج . . .

وتحدث الناس عن هذه الحياة السعيدة . . واختلف الناس فى مفهوم سعادة هذه الزوجية . . أناس يقولون : السعادة كلمة مؤنثة . . فالسعادة هى زوجته . . أنها ذكية حلوة أنيقة رقيقة . .

وتحب الناس . . ويحبها الناس . . وتحب أن يكون الناس حوله . . أن تخرج به من الدوسيهات إلى الناس . . كأى انسان عادى . . وينسى أنه محام ، وأن كل الناس مجرمون ، إنه هو وحده المطالب بالدفاع عنهم . . أن هذا الأسلوب فى الحياة يجعل زوجته فى حالة دفاع مستمر عنه هو . . هو يدافع عن الناس ، وهى تدافع عنه هو وتبرر وتفسر كل مايحدث له من سرحان ومن غضب ومن قلة ذوق أحيانا .

وأناس يقولون : بل السعادة هى الرجل . . فهو حسن التقدير وهو صبور وهو مجامل . . والذى يراه وهو يتحدث إلى زوجته ويبدى اعجابه بملابسها وتسريحة شعرها على مسمع من الناس يخيل إليه أنه عاشق .. وحتى ولو لم يكن عاشقا فهو حريص على أن يقيم لزوجته حفلة تكريم يقوم فيها هو بدور المايسترو . . أو بدور الملقن وعلى الباقين أن يمثلوا أدوارهم . . ثم هو رجل كريم . . وهو أيضا رجل قويم . . فلماذا لايكون الزوج سعيدا . . أو الزوجان سعيدين . .

ولكن الناس لم يكونوا يعرفون مايحدث وراء الأبواب . . فوراء الأبواب كوراء الكواليس المسرحية يجرى كل شىء فوضى .. وكل شىء على حقيقته المؤلمة ..أن هناك أكذوبة كبرى . هذه الأكذوبة بدأت تكبر وتتضخم بين الاثنين . . حتى تباعدا تماما . وأصبح كل منهما يرى الآخر صغيرا . ولاشىء يجعل

الإنسان تافها مثل أن يتغذى على أكذوبة كبيرة . . هى تقول عنه : أنه أصبح تمثالا من الشمع . .

وهو يقول عنها : أنها أصبحت تمثالا من الرخام . .

إذن هناك أشياء قد نحتت . . كل منهما يرى الآخر جامدا بلا حياة . أين ذهبت هذه الحياة . . ؟ أنهما الاثنان يعرفان الحقيقة . ولكن لايصرحان بما حدث بينهما .

بعض الأقارب والأصدقاء يعرفون . وبعض الجيران يتطلعون إلى النتيجة الطبيعة . وهى أن ينفصل الزوجان . أو أن يدرك الزوجان أنهما مقبلان على كارثة وأنه من الأفضل أن يتفاديا هذه النهاية . قليل جدا من الناس يكره أن يتفرج على هذه النهاية . ولكن الكثيرين يشعرون بشىء من الراحة أمام الفضيحة ويشعرون بشىء من الانتعاش أمام كوارث الآخرين فتصبح هذه الكارثة حديثا فى التليفون وطبقا شهيا أو مشهيا على كل مائدة وتحس كل زوجة أنها شىء آخر . . وكل زوج أنه من طينه أو من عجينة أخرى . . وأن كل الناس عقلاء فيما عدا هذين الزوجين . .

ولم يتدخل أحد . فالناس يرون الأستاذ سيف أمين رجلا عاقلا. وأنه مادام يقدر على إقناع القضاة فلن يعجز عن اقناع زوجته ..

فاذا كان فى وقت ضيق يجعل القاضى ينطق بالبراءة ، فانه يستطيع مع هذه الجلسات الطويلة المتصلة مع زوجته أن يقنعها بالخروج من هذا المأزق . . أو بالخروج من الجمود أو البرود إلى الذوبان فى البيت وفى الناس . . وإلى الاقتراب منه أكثر وأكثر . . ولكن الناس ينسون أن هذه الجلسات الطويلة تجعل الدفاع صعبا . . ثم أن الزوج لايكون هو المحامى . . وإنما يكون المحامى والقاضى والنيابة . . وفى كثير من الأحيان يكون المتهم . . وإذا كان الزوج قد احترف المحاماة ، فانه فى البيت قد احترف الجريمة — أى أن يكون مجرما فى نظر الزوجة . .

ولم يحدث جديد فى هذه الصورة أو هذه السيرة . .

وفجأة حدث التغيير الذى ينعش المأساة وينحدر بها إلى النهاية . فالى جوار الأستاذ سيف أمين المحامى توجد أسرة متوسطة الحال والعدد . . أرملة لها ولدان رجلان . أحدهما مهندس كان يعيش فى الكويت . والآخر محاسب فى إحدى شركات التأمين . وقد عاد المهندس أخيرا من الكويت على أثر برقية بعثت بها الأم تقول فيها : أحضر . . أخوك فى خطر . .

وجاء المهندس حمدى سليم لينقذ أخاه الأصغر من الخطر . . فقد اتهم الأخ الأصغر شوكت سليم باختلاس مبلغ من المال .

ولم يكن المهندس حمدى سليم يعرف الكثيرين من المحامين فى القاهرة ولكنه بسرعة سمع عن المحامى الشهير سيف أمين . وذهب إليه . وقدم نفسه ولم يكن من الصعب عليه أن يقول له : صحيح نحن جيران . ولكنى أعيش فى الكويت منذ عشر سنوات . ويبدو أن الدنيا معالمها تغيرت . . ولكن من المؤكد أنك من معالم البراعة فى دنيا المحاماة . .

وترافع الأستاذ سيف أمين وحكمت المحكمة ببراءة المحاسب شوكت سليم . .

وأقام الاخوان حفل عشاء فى بيتهما ودعى الأستاذ سيف أمين والسيدة عنايات . وفى جو سعيد تم اللقاء بين الجميع . وتم لقاء غريب عجيب بين المهندس حمدى سليم والسيدة عنايات ..

وكانت شخصية المهندس مسلية . ممتعة . فقد أقام بعيدا عن مصر وعنده قصص ونوادر . وأثناء الطعام انفرد هو بكل الاهتمام وشعر الأستاذ سيف أمين المحامى بسعادة مؤكدة . فقد أصبح له صديق جديد . هذا الصديق ممتن له . . ومعجب به . وبدأ المهندس حمدى سليم يتحدث عن حياته الزوجية بسرعة . وعرف الحاضرون أنه لم يكن سعيدا فى حياته . وأنه تزوج واحدة لم تعجبه . وأن من هذه العلاقة الفاشلة أنجب ابنة ، هى أجمل ماوهبه الله . . وأن هذه الابنة ، هى نوع من الاعتذار من الأقدار عما حدث له . . بل

إنه أحيانا يغفر لزوجته ماحدث منها . . يكفى أنها أعطته هذا الكائن الجميل . .

وتردد المهندس حمدى سليم على بيت صديقه الأستاذ سيف أمين . تناول الغداء والعشاء . . ودعا الزوجين إلى عشاء وغداء . . وتمكنت الصداقة من الجميع . .

وفى كل مرة كان المهندس حمدى سليم يرى فيها السيدة عنايات يقول لنفسه : حلوة . رقيقة . عصبية . خيالية . . ولابد أن تكون حزينة مادامت زوجة لرجل ناجح مشغول . أنها فى حاجة إلى صبر أيوب . . ويبدوا أنها قارنت بين حياتها مع زوجها وحياتها من غيره . . ولكنها حائرة . فلم تتخذ قرارا . وعندما يحار الانسان فانه يريد من أى انسان أن يدفعه إلى الأمام قليلا . ويصبح هذا الدافع هو وحده المسئول عن القرار كأنه هو الذى اتخذه . وفى هذه الحالة تكون المرأة بريئة . . أو تقول لنفسها أنها بريئة . . وأنها مدفوعة إلى هذه النهاية . .

وقد سمع المهندس حمدى سليم تاريخ حياة السيدة عنايات ساعات وساعات فى التليفون . وأصبح واحدا من أفراد هذه الأسرة الصغيرة . وطرفا فى كل قضاياها .

وكانت الصعوبة التى يواجهها دائماً هو كيف يكون صديقا

لاثنين ليسا أصدقاء . . ثم أنه صديق لأحدهما . . للزوجة . . أنه ليس صديقا فقط . . فهو مثلها قد لقى نفس المصير . . لقد تركته زوجته وتركت له هذه الابنة . . والسيدة عنايات تريد أن تترك زوجها — نعم هذا قرارها — ليترك لها هذا الابن الصغير . .

كلاهما إذن تزوج من لايحب . . أو من لم يعد يحب . .

- وروى للسيدة عنايات أيضا قصة حياته مع زوجته . وأطال . وحاول أن يبدو أمامها ظالما . وأنه هو الذى ظلم زوجته . وأنه الذى أساء فهمها . وكأنه أمعن فى اتهام نفسه ، تولت السيدة الدفاع عنه . . أى أنها وقفت إلى جواره ضد زوجة لاتعرفها . .

ولاحظ المحامى سيف أمين أن أسبوعا وأسبوعين وثلاثة قد مضت دون أن يعود حمدى سليم وابنته إلى الكويت . ولاحظت أمه أيضا كل مايجرى . وسألته وصارحها ، وانزعجت الأم . وقد انزعجت أمه كثيرا قبل ذلك . واطفأت انزعاجها وقلقها فى صدرها . فهى تعلم أن ابنها لايلين . وأن الذى يدور فى رأسه هو الذى سوف يكون قرارا . ولذلك لم تبد رأيا . وإنما انتظرت رأيه . وقال رأيه وحزنت الأم . .

وجاءت رسالة من خادمة تعمل فى بيت الأستاذ سيف أمين تقول : زوجتك على علاقة بصديقك المهندس . فأدرك النار قبل أن تحرق البيت . .

ولم تشتعل النار فى البيت ولكن فى قلب الأستاذ سيف أمين .. وإن كان هو قد قام بعملية إخماد لهذه النار بشكل ما . فعندما علم أن زوجته على علاقة بهذا المهندس أحس بشيء من الارتياح . هذا الارتياح هو نوع من التبرير للعبث الذى يقوم به دون أن تدرى الزوجة . إذن زوجته تخونه ، وهو أيضا يخونها أن خيانته لها مايبررها إذن . . ولكن هذه الفكرة عادت فاشتعلت مرة أخرى . فقد أحس بغيرة محرقة . لأنه لم يكره زوجته للدرجة التى تجعله لايغار عليها . . ثم إنه لم يهن أمره على نفسه لدرجة أن رجلا يدخل بيته ويأتمنه على شرفه وعلى زوجته ثم يخونه . . أى يجعله مغفلا . .

وأمسك الأستاذ سيف أمين التليفون وقال مندفعا وكأنه يخشى أن تنقطع أنفاس التليفون : اسمع ياحمدى . . أنا أدخلتك بيتى . وأنت فضحتنى . الناس كلهم يتحدثون عن علاقة مريبة أرجو ألا أصدقها . ولكنى أرجو أيضا ألا تكون سببا فى خراب بيت سعيد على رأس طفل برىء .

ووضع سماعة التليفون . ورنت هذه العبارة فى رأسه . . واستعادها مرة ومرة . . ولكنه رفض كلمة « سعيد » . . وكأنه يتمنى أن يقول « كان سعيدا » . . ولكنه لو قال ذلك لجاءت هذه الكلمة مبررا لأن يلهو فى بيته مثل هذا الصديق .

وأحس المحامى سيف أمين أنه لم يفقد أعصابه . والدليل على

أن عبارته جاءت دقيقة . ولكنه لايدرى إن كانت أعصابه ستفلت منه عندما يرى زوجته أو يرى المهندس حمدى سليم .

وتوالت خطابات أخرى كثيرة تؤكد هذه العلاقة التى بين حمدى سليم وعنايات .

وقرر حمدى سليم أن يقابل سيف أمين فى بيته وان يشرح له موقفه .

وقال له : كل ماقلته للسيدة العظيمة هو مالا يخجل أخ أن يقوله لأخته . ثم أنها هى التى شجعتنى على أن أروى لها قصة حياتى . . وهى مأساة حقيقية وإنى أكرر اعتذارى . . فليس معقولا أن رجلا أنقذ أخى من السجن ، يكافأ على ذلك بخراب عشه السعيد . .

وأحس سيف أمين أن حمدى سليم كان صادقا . واعتذر له . وطلب إليه أن يعذره . لأنه رجل حسن السمعة . وأن مواهبه إنما تفتحت فى جو السمعة الحسنة . . وأن السمعة الحسنة هى أوكسجين حياته . .

وعاد حمدى سليم يستأنف التردد على بيت صديقه سيف أمين .. ولكن شيئا ما حدث . . فقد لاحظ سيف أمين فى إحدى المرات أن ابتسامة على وجه زوجته لم تكن مريحة ..

فأثناء تناول الطعام قال حمدى سليم شيئا عن زوجته هو فما كان

من عنايات إلا أن ابتسمت . . وجاءت هذه الابتسامة مصحوبة بلمعان غريب من عينيها . . وغمزة خاطفة . وتأكد سيف أمين أن الذى بين زوجته وبين حمدى سليم حقيقة وأن خطابات الناس لم تكن تعجلا للنتائج . . أو تعجيلا لها . . وإنما هى ملاحظات مكتوبة من أناس رأوا كثيرا . . ولم يصبروا على مارأوا . . وأرادوا أن ينسفوا ماعنده هو من صبر أيضا . .

وبعث بخطاب إلى المهندس حمدى سليم يقول فيه : لاداعى لأن يكون أطفالنا ضحايا تعاستنا الزوجية . . تعاستك وتعاستى أيضا . . وأنا مضطر أن أحمى ماتبقى من كرامة ومن بيت . وأول خطوة من خطوات الدفاع أن أمنعك نهائيا من دخول بيتى أو الاتصال بزوجتى بأى وجه من الوجوه .

وتلقى هذا الرد من المهندس حمدى سليم : أنك ياسيدى تخلق مأساة جديدة . وليس من حق الآباء أن يفرضوا حماقاتهم على على أبنائهم . . فقد تعلقت ابنتى بزوجتك . وهى معذورة فهى محرومة من الأم . وقد تفاهمت زوجتك وابنتى بسرعة . . وربما كانت هذه السرعة سببها أن أحدا لم يتدخل بينهما . وسوف أكسر قلب ابنتى وأعود بها إلى الكويت . . غير آسف على شىء . . إلا على صداقة ولدت وكبرت وترعرعت ودفنت فى قلبين تحت وابل من خطابات كاذبة . .

ونقل حمدى سليم إلى عنايات كل مادار بينه وبين زوجها . وثارت الزوجة وقالت الجملة التى احتبست بين شفتيها زمنا طويلا : طلقنى . . .

وببرود غريب قال لها : عمرك أطول من عمرى . . كان فى نيتى أن أقولها . . ولكنى لاأحملك أى لوم لأنك سبقتنى إلى هذه العبارة . . وإنما أردت فقط أن أقارن بين وجهك وصوتك وشفتيك وقوامك وعطرك وأنت تقولين هذه الكلمة ، وبين ماكنت عليه عندما قلت لى لأول مرة : أحبك . . طبعا أنت لاتريدين أن أذكرك بماضينا .. لاتريدين ولا أنا أريد . . فما فات مات . . أو من الواجب أن يموت . .

ولجأ سيف أمين إلى خال زوجته . أنه رجل عاقل . كثيرا ما استشاره وكثيراً مااستعان به على زوجته فى الأمور الصغيرة والكبيرة . . وفى الأمور الصغيرة أكثر . .

وحدث ما يتوقعه الطرفان عندما يدخل بينهما ثالث . . حدث هدوء مؤقت . .

وجاءت الزوجة تقول لزوجها : فكرت وعدلت عن الطلاق .. فأنا لاأريد أن يتعذب طفلنا . فمن أجله يمكن أن احتمل هواتا من والده أكثر من ذلك . ولكن بشرط .

فقال الزوج : أقبل شروطك .

وقالت الزوجة : أن تكون فى واد . . وأنا فى واد آخر . .

وعاد الزوج يقول : وألا يكون الطريق بين الواديين مفروشا بالكرامة تدوسها الاقدام ذهابا وإيابا . .

وكأن عبارته هذه جاءت بعد أن صدر الحكم ورفعت الجلسة وخرج كل من فى المحكمة . . فلم يسمعها أحد . . أو سمعها كل الحاضرين ولم يجدوا لها معنى . .

وقال الزوج فى نفسه : مادامت لاتريد الطلاق : إذن فالمهندس حمدى سليم لم يعدها بالزواج . .

وأحس الزوج باهانة أخرى . . فهى لم تقرر البقاء من أجل طفلها ، أو من أجل حب قديم ، أو من عشرة كانت سعيدة ، ولكن لأنها مرفوضة . . لأنها ألقيت من النافذة . . فهى إذن قد عوقبت من رجل آخر . . ولكن لابد أن يعاقبها هو . . ولم يفكر فى العقاب . . فلماذا لايطلقها هو . . ولماذا لايرفضها هو أيضا . . فقد بدأت هى بالرفض . .

وقرر أن يطلقها لولا أن طفلهما أصيب فى حادث سيارة . ودخل المستشفى . والطفل يتعلق بأبيه أكثر من أمه . . ويصر على بقاء

الأب إلى جواره . وكانت زيارة الأب لابنه فى المستشفى نوعا من التكريم المؤلم له . . فهو يترك أمه ويتجه إلى أبيه أى أن الطفل يرفض الأم فى حضور الأب . . ولكن الطفل الصغير لم يكن يعرف معنى مايفعل . ولا عمق هذه الضربات التى يوجهها إلى أمه.. بمجرد أن يمد يده . . أو يحاول النهوض من الفراش عندما يدخل أبوه . . أو يعانقه أو يقبله .

أما لماذا عادت عنايات إلى زوجها تطلب إليه أن تبقى معه فى بيت واحد وليس تحت سقف واحد أو غطاء واحد ، فلأنها أدركت بغريزتها أن حمدى سليم لم يكن يحبها حقيقة . . وإنما هو يريد امتلاكها أو يملأ بها الفراغ الذى تركته زوجته . . فقط ملء فراغ ومن أجل ابنته . . هو يريدها من أجل ابنته . .

ومطلوب منها أن تترك ابنها من أجل ابنته . .

وكما قالت عندما رأت زوجها : هذا الرجل هو الذى أريده . . راجعت نفسها وقالت عن حمدى سليم : هذا هو الرجل الذى لاأريده ولاأستطيع أن أكون معه . . أو أعيش له . .

* * *

وفى الليلة السابقة على اختفاء المحامى سيف أمين سهر فى مكتبه حتى ساعة متأخرة . وعندما عاد إلى البيت لم يذهب إلى فراشه .

وإنما ظل ساهرا فى غرفة ابنه الصغير . وعلى الرغم من أن الطفل كان نائما فقد بقى المحامى يقلب فى أوراق قديمة . . دوسيهات قديمة . إنها إحدى القضايا التى كسبها . وكان لها دوى فى الصحف . ولكن السبب لاهتمامه بهذه القضية لم تكن ذكرياتها الجميلة فقد كسب قضايا كثيرة . ولم يصبح للنجاح لذه. وإنما أصبح النجاح عادة سيئة. فلأن النجاح عادة لم تعد له متعة . ولأن الناس اعتادوا منه أن ينجح كان عليه أن يكد ويتعب . وينعزل وينفرد .. . ويعكف على البحث ليلا ونهارا . فالنجاح فى المكتب وأمام الناس هو الذى جعل الفشل عادة فى البيت ومع زوجته وبين أقاربه وأقاربها . . وأصبح نجاحه مبررا لكل خلافات زوجية . .

وعندما أقفل دوسيهات هذه القضية الغريبة قرر فيما بينه وبين نفسه : أستطيع أن أعمل نفس الشىء . .

وسأل نفسه : ماالذى يسعد زوجتى الآن ؟

وأجاب: أن أختفى . ومن الأفضل أن يكون الاختفاء نهائيا .. أن أموت . . تماما كما حدث فى هذه القضية . .

وسافر المحامى سيف أمين إلى القاهرة . . وفى بيته قرر ألا يرى زوجته فى خير . . وألا يرى ابنه الوحيد أيضا . . أن حياته لم يعد لها معنى عند أحد . . وإذا كان لحياته معنى عند طفل . فهو معنى

غامض . وليس أسهل من أن ينسى الأطفال . . إنه هو شخصيا قد نسي أن والده قد مات . . لقد وجد عمه . . وقالوا له : هذا أبوك.

ثم أن الحياة لم يعد لها معنى عنده أيضا . . إنه تعب . . وأنه لايعرف كيف يوفق بين مايدور فى رأسه ، وما يدور فى عمله وما يدور فى بيته . . وإنه قد حاول كثيرا أن يجد طعما على لسانه ، ونغمة فى أذنه ، أو دلالة فى قاموسه . . لم يجد . .

ولكن ما الذى منعه أكثر من مرة أن ينتحر . أنه لايعرف بوضوح . لأنه لم يفكر كثيراً فى هذه الحياة أو فى التخلص منها . . ومصيبة هذه الحياة أنها تغرق الناس . . ينشغلون بها . وينشغلون عنها .. ولايأخذون منها إلا القليل . والقليل الذى يأخذونه يكون عادة وهم فى حالة من الغيبوبة . . من النوم . من الدوخة . . وهو يدين للنوم بأجمل مافى الحياة . فقد كانت أحلامه أروع من الواقع .. وكان النوم عملا اراديا . فهو الذى يتصيد بالنوم بالحبوب .

وكأن النوم مأذون يعقد له على زوجته كل ليلة فأصبح النوم مأذونا يطلقه من زوجته كل ليله . .

وهو الآن يريد أن يطلق الزوجة والعمل والحياة كلها . . أنه حر فى حياته . لم يعد يهم أحدا . لاأحد يهم أحدا . . هذه حياته وهو حر فى أن يرمى بها فى أقرب نهر . . أو تحت أقرب قطار . . أو يلقى بها للسمك . .

وذهب إلى القاهرة . .

وفى نفس الليلة التى اختفى فيها ولم يعد ، تلقى البوليس رسالة من مجهول يقول : اعتذر عما حدث فى مكتبى . أن المحامى سيف أمين قد مات فى هذه الغرفة . الغرفة طولها أربعة أمتار وعرضها متران وارتفاعها ثلاثة . وعلى أرضها سجادة عجمى قد غرقت فى الدم . . إنها غلطتى على كل حال . فأنا رجل عصبى وهذا واضح من خطى ومن ارتعاش يدى . وكان على مكتبى مسدس . وجاءنى السيد سيف أمين فى قضية هامة . واستشرته . ولا أعرف لماذا لم أطلق عليه الرصاص فى وجهه ربما كنت جبانا . أو ربما لم يعجبنى قفاه . ولم يعجبنى ذلك العنق الذى انحنى إلى الأمام من كثرة القراءة . . إنه يشبه عنقى الذى انحنى إلى الأمام بسبب كثرة الجلوس إلى موائد القمار . . وأطلقت عليه النار . . فمات وسوف تجدون أن الرصاصة قد أصابته فى رأسه من الخلف . صحيح أننى جبان . لكنى لست نذلا . ولذلك أسلم نفسى للبوليس ، وعنوانى هو ١٣٧ شارع عرابى . . وأحب أن أضيف شيئاً آخر وأقول إننى رجل لبنانى وليس لى أصدقاء فى مصر .

وكان الخطاب موقعا بامضاء . فريد خورى . .

وقد أعتاد البوليس أن يتلقى خطابات كثيرة من هذا النوع يكتبها أناس سخفاء أو مجانين يريدون أن يضللوا البوليس . . ولكن عندما أبلغت عنايات أن زوجها قد أختفى ولم يعد . . وأن هذا

غير طبيعى . . أحس البوليس أن الأمر جاد . . وأنه من الأفضل أن يبحث عن هذا القاتل فريد خورى . . وذهب إلى العنوان . . ووجدوا فعلا لافته على الباب : فريد خورى – شركة استيراد وتصدير . . وعرف رجال البوليس أن هناك رجلا بهذا الاسم . . وأنه واسع الشهرة . . وأنه قد أستأجر هذه الشقة منذ شهور . .

وأقتحم رجال البوليس الشقة . . ودخلوا غرفة المكتب . . وعلى أحد المقاعد الوثيرة كان المحامى سيف أمين قتيلا . . ولكن لم يجدوا القاتل فريد خورى . .

ووجد رجال البوليس خطابا فى جيب المحامى سيف أمين بأمضاء فريد خورى يدعوه إلى مكتبه بصورة عاجلة ليستشيره فى أحدى القضايا . . وعثروا على برقية عاجلة تطلب سرعة سفره إلى الأسكندرية . .

ونقل جثمان المحامى سيف أمين إلى القاهرة . . وشرحت الجثة . . وأثبت الطبيب الشرعى أن القتيل ظل ملقى على الأرض بضع ساعات . . وأن شخصا قد نقله من الأرض إلى المقعد . . وأن هذا الشخص قد ترك أثرا ضئيلا لحذائه على الدماء الجافة فى أرض الحجرة . .

وحزنت عنايات على ما أصاب زوجها . . وحزن أبنه الصغير . . وكان مشهد الأبن فى جنازة الأب يذيب العيون دمعا وأسى . .

وكان من بين المشيعين أيضا الاخوان حمدى سليم وشوكت سليم . .

وتلقى البوليس خطابات تقطع بأن القاتل هو المهندس سليم الذى كان على علاقة بأرملة المحامى . . ولا يستبعد أن يكون القتل بالاتفاق مع هذه الزوجة . .

وحاول البوليس أن يعرف بحيل عديدة خط حمدى سليم وخط أخيه شوكت سليم . .

وتأكد لدى البوليس أن كاتب هذا الخطاب هو شوكت سليم . . لا شك فى ذلك . .

وألقى القبض على الاخوين . .

وعلى الرغم من البراعة التى أستخدمت فى تحقيق هذه الجريمة ، فان شوكت سليم قد نسى أن يبعث خطابا بخط شخص آخر . . أو يكتبه على الآلة . . لقد نسى ذلك . . أو تعجل . . أو لعله ظن أنه بعيد تماما عن عيون العدالة ورجالها . .

وأندهش الناس لإلقاء القبض على الاخوين . .

أما القاتل أو كاتب الخطاب فهو شاب نصاب مقامر . . وفى حاجة مستمرة إلى الفلوس . . وكثيرا ما سرق أموال أخيه . .

ومعروف أنه بلا قيم أخلاقية وربما كانت القيمة الوحيدة التى ما يزال يحتفظ بها هى أن يكون صادقا مع نفسه فيكذب دائما على كل إنسان . . وخصوصا أقرب الناس إليه . .

وأدرك الأخ الأكبر حمدى سليم نقطة الضعف فى أخيه : أنه شخص للبيع . . والاقربون أولى بشرائه . . فأشتراه وأتفق الأثنان . . وقبل أن يتفقا تناقشا طويلا . . وساوم كل منهما الآخر . . . على الفلوس وعلى الفضيحة . . ودفع حمدى مبلغا من المال . . وطلب إلى أخيه أن يسافر كثيرا إلى الأسكندرية وإلى القاهرة وإلى لبنان وإلى الكويت . . وإن يستخدم براعته السابقة فى التمثيل . . فيطيل لحيته ويشترى لنفسه باروكة شعر أسود . .

وبلغ من قدرة شوكت على تزوير ملامحه أن حمدى سليم دعاه إلى الغداء فى البيت ورأته أمه ولم تعرفه . . فقد طال شعره وشاربه . . وأفتتح له الأخ الأكبر مكتبا تجاريا فى الأسكندرية . . باسم لبنانى : فريد خورى . .

وبسرعة أفلح فريد خورى فى أن تكون له علاقات كثيرة ومتعددة . وأن ينفق من مال أخيه على السهرات وعلى الفتيات . . وعلى البوابين وعلى السفرجية . . وأن يختفى من حين إلى حين . .

وتمت الجريمة باتقان . . وأختفى (فريد خورى) . . وعاد إلى القاهرة شوكت سليم يعيش حياته العادية كأن شيئا لم يحدث . .

وبعد أيام من البحث والمراقبة عرف البوليس حقيقة القاتل . .

* * *

وفى قفص الإتهام دافع حمدى سليم عن أخيه شوكت وقال : أنه إنسان طيب . . وكان يتمنى أن يكون ممثلا ناجحا . . وكان من عادته وهو طفل أن يخفى السكاكين تحت مخدته ليقتل السلطان . . وأن أباه قد ضربه كثيرا . . فعدل عن وضع السكاكين وراح يضع البمب . . والمسدسات . .

ودافع شوكت عن أخيه حمدى سليم فقال : أنا القاتل . . وليس من حق البوليس أن يعتقل رجلا بريئا . . كل جريمته أنه أحب أرملة القتيل . . وعلى الرغم من هذا الحب الهائل ، فأنه لم يفكر لحظة واحدة فى أن يقتله بيده . .

وعاد حمدى سليم يقول : ولا أرى أن أخى هذا هو القاتل الحقيقى . . ولا يمكن أن تكون كراهيتى أنا للمرحوم سيف أمين سببا فى أن يقتله أخى . . أن أخى مجنون . .

وصرخ شوكت سليم : لست مجنونا . . أنا قتلته بكامل وعيي . .

وأنا الذى وضعته فى هذا المكان . . ولكن كان فى أستطاعتك أنت أن تكتب الخطاب على الآلة . . وإنما أنت الذى عدلت فى آخر لحظة وطلبت منى أن أكتبه بيدى لأن أحدا لن يعرف هذا الشخص الذى أسمه فريد خورى . . أنت الذى أردت أن أقتل المحامى . .

وأثناء المحاكمة دخلت عنايات أرملة سيف أمين . . ونظر إليها حمدى سليم ولم يرها . . بوضوح . . ولا هى رأته بوضوح . . ولكن رآهما الناس بوضوح شديد . . ومن المؤكد أن أحدا منهما لم يستمع إلى همس الناس : هذه هى . . ليس واضحا أنها مجرمة . . تمثيل فى تمثيل . . حزن مصطنع . . مجرم حقيقى . . كان محاميا عظيما . .

ومن أسرار هذه الحياة الغريبة ما حدث بعد لحظات . .

فقد فوجئ الحاضرون بحمدى سليم يصرخ بأعلى صوته . أبنتى . . أبنتى . . ثم ينهار باكيا . .

ولكن أحدا لم يعرف بالضبط ماذا حدث لأبنته . . وحاول أخوه أن يمد يده إليه . . ولكنه عدل فى الحال . . فلم يعد الأمر يعنيه . . فكلاهما مجرم . . كل منهما سوف يلقى جزاءه . .

ولكن السيدة عنايات بعد أن أقتربت من مقعدها أنطلقت إلى

خارج المحكمة . . ولم يحاول أحد أن يمنعها . . وكانت تخوض فى أمواج من الهمس . . والكلام الصاخب والإستنكار . . وأحس الناس بشئ من الأرهاق لما حدث . . فلم يعد عند أحد رغبة فى أن يقبل على مثل هذه الألغاز . . فالناس يريدون أن يعرفوا من هو القاتل وما هو عقابه . . ويطمئن كل إنسان إلى أن العدل قد تحقق بقوة المنطق أو قوة السلاسل والسلاح . .

وأمام باب المحكمة كانت عنايات قد تركت أبنها الذى لم يكف عن البكاء منذ مقتل والده . . وتركت معه أبنة حمدى سليم التى رفضت أن تدخل المحكمة لترى والدها . . والتى حاولت فى الأيام الأخيرة أن تلقى بنفسها من النافذة . . ولكن هذه الطفلة متعلقة بعنايات . . وطلبت عنايات من السائق أن يقفل أبواب السيارة على الطفلين إذا فكر فى أن يذهب إلى مكان ما . .

وعندما عادت عنايات إلى خارج المحكمة بحثت عن سيارتها فلم تجدها . . ولكنها بسرعة غريبة عبرت الشارع دون أن تسمع فرامل السيارات الصارخه يمينا وشمالا . . ووجدت سيارتها فى نهاية الشارع . . وراحت تخوض فى جمع كبير من الناس ولم تنظر إلى ما تحت أقدامها . . وإنما نظرت فى السيارة لم تجد الطفلة . . وألتفتت وراءها لترى الطفلة قد صدمتها أحدى السيارات

والتف حولها الناس . . أنهم نفس الناس الذين فرقت بينهم بالقوة دون أن تدرى . .

* * *

ولا يهم بعد ذلك ما الذى أصدرته المحكمة . . لقد أستراح الناس إلى القضاء . . إلى قضاء الله أيضا . . ولكن لم يفهم الناس ماالذى أرتكبته طفلة صغيرة أبوها قاتل . . أن موت الطفلة عقاب للأب . . صحيح . . ولكنه موت أيضا للطفلة . وموت المحامى عقاب لمن ؟ ليس عقابا لزوجته . . فهى لم تكن تحبه . . وكانت تفكر فى أن تتركه . . وإذا كانت قد عدلت عن هذا القرار فليس ذلك حبا فيه، كان يأسا من غيره . . فما هو عقابها . . لابد أن يكون العقاب هو مقتل هذه الطفلة البريئة التى تعلقت بها ولابد أن يكون مقتل الزوج وسجن الحبيب هو العقاب . .

أما عقاب حمدى سليم فهو أقسى من أن يوصف . . أما عقاب شوكت سليم فهو يستحقه وهو معترف بذلك . .

وأستراح الناس . . فصائب الناس تنعش غيرهم من الناس . . لأن الحياة مملة . . ونحن فى حاجة إلى من يهزها بعنف . . يهزها دون أن يهزنا . . بسيل من الدماء . . بشرط ألا تكون دماءنا . .

* * *

ومضت سنة على هذه الكوارث .. وفى الذكرى السنوية للجميع تلقت السيدة لبيبة أم الأخوين حمدى وشوكت خطابا يقول : الحق .. أن أبنك سمير قد أصبح عاشقا لعنايات أرملة المحامى سيف أمين ..

أما سمير هذا فقد كان طالبا يدرس فى أمريكا ولم يتمكن من العودة يوم ألقاء القبض على أخويه .. لقد عاد بعد ذلك .. وصدمه النبأ الفظيع .. وأحس برغبته فى أن يقطع دراسته فقد فضحته الصحف .. وضايقه من زملائه أنهم يسألون عن الجريمة والقتل .. ولكنه تماسك وأصر على أن يكمل دراسته وأن يجعل بقاءه فى الخارج نوعا من الاحتجاج على زملائه .. والاحتجاج على أخويه .. ولكنه عاد بعد ذلك ..

وسألته أمه : هل صحيح يا ولدى ..

فقال : صحيح يا أمى ..

— لماذا يا ولدى ؟

— لقد أوصانى أخى حمدى بها ..

— وقال لك تزوجها ؟

— لم يقل ذلك ..

— إذن ؟

— لا شئ . . يمكن أن أتركها . . أننى لم أرها إلا ثلاث مرات . .

— أحسن يا ولدى . .

وتلقت الأم خطابات تقول : أن أبنك والأرملة يلتقيان سرا . .

ومزقت الأم الخطاب . . ولم تشأ أن تقول لأبنها شيئا . .

وتلقت الأم خطابا لم تفتحه يقول : أنهما أتفقا على الزواج . . وأنهما زارا حمدى وشوكت فى السجن . .

وجاءت خطابات كثيرة لم تفتحها الأم ثم توقفت هذه الخطابات عندما قررت عنايات فجأة أن تسافر إلى الخارج مع أبنها . . وعرفت الأم فى آخر لحظة أن هذه الأرملة قد سافرت إلى الخارج .

وحاول سمير أن يقنع والدته بالسفر !! فان الحياة بعد هذه المأساة لم يعد يطيقها أحد . .

وقال : لم يعد لنا شئ . .

وقالت : لم يعد لك أنت ؟؟

وقال : وماذا يفيد بقاؤك . .

وقالت : وماذا يفيد سفرك أو سفرى ؟

وبقيت الأم وحدها . .

ومضت سنة .. وعشر سنوات .. ولم يعد أحد من الذين خرجوا من البيت .. وسوف تبقى الأم عشر سنوات .. دون أن يعود أحد .. وقد أعتادت أن تفتح بعض الخطابات التى تصلها فى الذكرى السنوية لوفاة حفيدتها .. ودخول ولديها السجن .. ولكن أكثر الخطابات تكدسها الأم ولا تفتحها ..

ولا يزال الناس كلما يرونها يتناقشون فى معنى عدالة الأرض وعدالة السماء .. ولم يهتدوا إلى حل .. ولكن هذه الأم قد أهتدت إلى حل : أن تبكى .. لأنه لا فائدة من شئ .. لا من الدمع ولا من الصبر .. فهناك قدر .. وعدالة .. ودماء . ولا يعرف الإنسان إلا النهاية .. وقبل النهاية بقليل ..

فى هذا الكتاب

قصـــة حبيبى . . . . ٥ — ١٠
من غير نهــاية . . . . ١١ — ٢١
خــرج من حيــاتى . . . . ٢٢ — ٢٥
ونظـــــر وراءه . . . . ٢٦ — ٢٨
عـــذاب نانسى . . . . ٢٩ — ٣٧
أم عبـــاس . . . . ٣٨ — ٤٤
ليـــلة من الف . . . . ٤٥ — ٤٨
وكانت النهـــاية . . . . ٤٩ — ٦٢
هــــروب . . . . ٦٣ — ٧١
حواجز من الزجاج . . . . ٧٢ — ٧٩
الفصل الأول والاخير . . . . ٨٠ — ٨٥
أسطورة مريانا . . . . ٨٦ — ٩٢
السعادة ارادة الله . . . . ٩٣ — ١١٤
البحث عن بداية . . . . ١١٥ — ١٢٧
عريس بالليســـانس . . . . ١٢٨ — ١٣٩
أصـــــابع بلا بصمات . . . . ١٤٠ — ١٧٤
شــــعاع . . . . ١٧٥ — ٢٠٦
مخـــالى .. عريسا . . . . ٢٠٧ — ٢٣٣
هى .. وغيرها . . . . ٢٣٤ — ٢٦٢

رقم الإيداع : ٥٣٣٧/ ٨٧

الترقيم الدولى : ٦ - ١١٢ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

To: www.al-mostafa.com